المذاكرات الجغرافيَّة

في

الاقطار السوريَّة

للاب هنري لامنس اليسوعي

استاذ الجغرافيَّة في مكتبنا الشرقي سابقاً

نقلًا عن مجلة المشرق

بيروت

المطبعة الكاثوليكيَّة

١٩١١

المذاكرات الجغرافيَّة

في

الاقطار السوريَّة

للاب هنري لامنس اليسوعي

استاذ الجغرافيَّة في مكتبنا الشرقي سابقاً

نقلاً عن مجلة المشرق



بيروت

المطبعة الكاثوليكيَّة

١٩١١

تنبيه

كان حضرة الاب هنري لامنس باشر في المشرق في سنتيهِ العاشرة والحادية عشرة دروسًا جغرافيَّة عن اقطار الشام كانت نيَّته ُان يتابعها مدَّةً فيجعلها كتابًا مستقلًّا يلحقهُ بكتابهِ « تسريح الابصار في ما يحويه لبنان من الآثار » فوضع في ذلك عدَّة مقالات ثم دعتهُ الاشغال الى سكنى مصر فرومية العظمى ولم يَعُد في امكانهِ ان يواصلها . فهذه الدروس مع كونها غير تامَّة هي غاية في الفائدة لمعرفة احوال سوريَّة وبعض ما كتبهُ العرب في وصفها في القرون الوسطى وذلك ما حدا بالمطبعة الكاثوليكية الى ان تنشرها على حدة . واملُنا ان الظروف تسمح لكاتبها ان يعود يومًا الى تتمَّتها والله على كل شيء قدير



المذاكرات الجغرافيّة

في

الاقطار السوريّة

تمهيد

تجوّلنا في انحاء لبنان (1 مع قرّائنا الكرام فسرّحوا معنا الابصار في ما يحتويهِ هذا الجبل من الآثار فوجدوا في هذا النظر فائدةً ولذّة. ومذ ذاك الحين أَلحُّوا علينا بان نوسّع نطاق ابحاثنا فنشمل بدروسنا كلّ انحاء الشام فها نحن نلبّي ملتمسهم ونباشر كتابة فصولٍ متتابعة في هذا الشأن نُطلق عليها اسماً جامعاً فندعوها « المذاكرات الجغرافيّة في الاقطار السوريّة »

وقبل ان نُقدم على العمل ندوّن هنا خلاصة مشروعنا ليكون القرّاء على بيّنة مما قصدناهُ. نفتتح اليوم سياق مذاكرات شتّى نتابعها على صفحات المشرق بسرعة كافية مع مراعاة الظروف والاحوال. ويكون ابتداء كلامنا في ابحاث عموميّة عن موقع سوريّة الجغرافيّ وما نالتهُ هذه البلاد في سالف الزمان لفضل مركزها من المنافع والمرافق وما ينتظرها ايضاً بسببهِ في المستقبل من النجاح. ثمّ ننتقل الى وصف صورتها وتخطيطها ثم نذكر جبالها ومياهها مع البحر الذي يماسُّ سواحلها ثمّ نصف مواليدها

1) راجع كتابنا: تسريح الابصار فيما يحتوي لبنان من الآثار

من معادن ونبات وحيوان. واذا انتهينا من هذا النظر العموميّ ننتقل ان شاء الله الى اوصاف كلّ جهة بجدتها ونعرّف خواصّ حواضرها وتاريخ ابنيتها القديمة وآثارها الجليلة وكلّ ذلك على التقريب يوافق الفصول التي خصصناها بلبنان واحوالهِ

فمن هذا الرسم الوجيز ترى سعة الموادّ التي تشملها ابحاثنا اذ لا تتناول فقط الاحوال الحاضرة بل تمتدّ ايضاً الى ما سلف عهدهُ. وأملنا انَّ القارئ يصحبنا في هذه الرحلة الطويلة دون ان يأخذهُ الملل. ولا ريب انهُ يستدرك هذا الخطر ان صرف نظرهُ الى ما يقال ليس الى من يقول لأنَّ الموضوع ذو بال كثير الشُعَب متعدّد المناظر يعاين فيهِ المطالع مع طولهِ مشاهد فتّانة تتناوب وتتوالى فيقرُّ اليها بصرهُ ولا يحسُّ بسأم. وزد على ذلك انَّ الذي نصفهُ ليس بامرٍ غريب عن القرّاء لكنَّهُ امرٌ قريب تحنّ اليهِ اضلاعهم وتمسُّهُ مشاعرهم اعني سوريّة مسقط رأسهم ووطنهم العزيز فكل ما ينوط بهِ يهمُّهم شأنهُ ويجدر بهم الالتفات اليهِ. وهذا الذي حدانا الى مباشرة العمل كي تزيد قرّاءنا اعتبارًا لبلادهم اذا ما عرفوا كلّ ما اودعهُ الخالق من المحاسن والكنوز. فمن الله نطلب ان يمدَّ الينا يد المساعدة لنقوم بهذا المشروع قيامًا اهلًا بسموّ شأنهِ فنحقّق اماني القرّاء فينا

وها نحن نصدّر مقالاتنا بفصل اعداديّ نبحث فيهِ عن موقع سوريّة جغرافيًّا لنستدلّ بهِ على تاريخها القديم. ولهذا الفصل مقدَّمة غاية في الاعتبار تعود الى اصل العترة البشريّة كلّها. اعني كون سوريّة مهد الجنس البشري



١

سوريّة ومهد الجنس البشري

قال اتيان لامي (١ ما تعريبهُ: « انَّ في العالم بلاداً تتصافح فيهـا اقطار اوروبة وآسية وافريقية. وتعيش بالالفة على السواحل نفسهـا. هي بلاد بريّة وبحريّة معاً. هي سوقٌ جامعة لمرافق مئة مدينة ومرفأ تتبادل فيهِ القارات الثلاث محصولاتها المتنوّعة. هناكَ تتصلَّب وتتوارد الطرق التجاريّة التي فتحها العالم القديم. هي اقدم موطن يعاين فيهِ الانسان آثار اقدامهِ. فيها نشأَت اخصُّ الديانات الشائعة. وخلاصة القول لستَ تجد حيثما نظرت بلداً اصغر من هذا في مساحتهِ قد اختلطت فيهِ وتزاحمت امم اكثر وديانات اعظم وآثار اخطر »

نعم القول يسرُّنا ان ننقلهُ عن كاتب بليغ فنحلّي بـهِ مطلع هذه الدروس التى افردناها لسوريّة وآثارها

ولا مراء انَّ سوريّة قبل كلّ بلادُ القدَم بلاد الزمن السابق للتاريخ. فليت شعري أَليس لها علاقة مع اوَّل منازل البشر؟ انَّ الانسان منذ الوفٍ من السنين قد طبع في ذهنهِ ذكر فردوس ارضي ظهر فيهِ جنسهُ فاين هي يا تُرى هذه جنَّة عدن؟ افي العراق؟ افي سهول ما بين النهرين؟ افي غوطة دمشق وبقعتها الفيحاء كما ارتأَى القديس اغناطيوس منشئ الرهبانيَّة اليسوعيَّة في كتاب رياضاتهِ الروحيَّة؟ هذه الآراء وغيرها قد كُتبت فيها التآليف الواسعة بل تجفّ المحابر قبل ان يُستقصى فيها البحث او يُكشَف سرّها بالتمام امَّا كون الفردوس في تخوم سوريّة فهذا احد الآراء الثمانين التي قال بها الكتبة (٢ يؤيّده كون الفرات يجري في بعض جهات هذه البلاد

---

١) في مقدّمة كتابهِ المعنون « La France du Levant »

٢) راجع الصفحة ١٠ من كتاب للعلّامـة دلتش حيث اتّسع في اقوال العلماء عن مكان الفردوس والصفحة ٤٣ (F. Delitzsch: *Wo lag das Paradies?* 43)

في النصف الأوّل من القرن السابق ترل عند حف لبنـان شاعر كان اصاب الشهرة في قومهِ يُدعى لاَمرتين . فاعجبهُ طيب هواء البلاد فاتّخذ بيروت لـهُ موطناً وكان يخرج منهـا الى انحاء الشام ليزورها ويدرس آثارها . ففي بعض مسيرهِ رقي أكمة الاشرفيّة فوق كنيسة مار متري فاجال نظرهُ مليّاً في المشاهد التي كانت تحدق بـهِ فاخذت بمجامع قلبـهِ وكادت تسحر لبَّهُ . فكان يرى البحر حول بيروت من جهاتها الثلاث كانهُ المنطقة المزركشة بالارجوان والذهب . وكان ينظر على شمالهِ لبنان الناطح بقرونهِ السحاب وبين هذا الجبل وموقف الشاعر كانت تنبسط السهول السندسيّة الغنيّة بزارعها منها غابات الزيتون عند شويفات وغابة الصنوبر . وكان يجد في ارمال بيروت صورة ملطَّفةً لمفاوز بلاد الصحراء . نعم انَّ في العالم محاسن اجمل وابدع ولكن أيوجد في العالم امكنةٌ عديدة جمع فيها الله كلّ هذه المناظر المتباينة والرؤى الفاتنة في دائرة ضيّقة كهذه ؟ ذلك ما شغل فكر الشاعر زمناً طويلًا فبقي غائصاً في تأمّلاتهِ الى ان عاد الى نفسهِ فهتف : « حقيقةً انَّ الله قد وضع في هذا المكان اكثرمماً يمكنهُ الانسان ان يتصوَّرهُ فاني كنتُ اتوق الى مرأى فردوس عدن فها هوذا بعينهِ (١ »

لا أُريد ان احكم في هذا القـول اهو عين صواب او هو بالحري وصف تخيُّلي لشاعر متفنن وليست غايتي ان أنسب لهُ حلّ هذا المشكل العويص . ولكن يمكننا ان نعتبر هذا البحث من وجه آخر فنحصرهُ في حدود معلومة . ولا يخفى عليَّ بانهُ يلذُّ القرَّاء ان يستقروا اخبار الشعوب جيلًا بعد جيل ليعرفوا مهد الجنس البشري ويتبيَّنوا موقع الفردوس الارضي . لكنَّ هذا البحث يخرج عن حيّز الممكنات وانّما نستطيع ان نقتصر في البحث عمّا ورد في تاريخ السلالتَين العظيمتين من السلالات البشريّة اللتين لعبتا في العالم اشرف الادوار نريد الامم الساميَّة والهندواوربيَّة فنقول :

انَّ المذهب الشائع بين العلماء في موطن بني سـام الاصلي أنهم ظهروا في شبه الجزيرة التي موقعهـا بين خليـج العجم والبحر الهندي والبحر المتوسّط اعني في مربّع عظيم تشغل سوريّة جهتهُ الغربيَّة . لا نجهـل انَّ غيرهم من المستشرقين يجعلون اصل الساميّين في افريقية ويزعمون انهم تخطَّوا منها الى آسية . فرأيهم هذا يستدعي بحثاً لا

(١) راجع رحلة لامرتين (Lamartine: *Voyage en Orient*, ed.Hachette, I, 434)

يسعنا الآن الخوض في غمرهِ . وما لا شبهة فيـهِ انّ مهد الساميين التاريخيّ حيث يظهرون في نور التاريخ فنتبع اعمالهم واخبارهم دون ريب ونميّز خواصهم التي تفرزهم عن غيرهم من الامم في القرون التالية قد كان موقعهُ في المربّع الكبير الذي ذكرناهُ آنفًا . سواء كان هذا المقام محلّهم الاصليّ ام لا ومنـهُ انتشروا في بقيّة انحاء آسية المتقدّمة ثمّ الى كلّ انحاء المعمور . ومن اراد ان يتجاوز هذه الحدود التاريخيّة سار في مجاهل على غير هدى وتعرّض للضلال والعثرة . ولعلّ تقدُّم العلوم يأتينا يومًا بوسائل جديدة لتلطيف هذه الظلمات الكثيفة [1]

امّا السلالة الهندواوربيّة التي تهمُّنا من وجوه متعدّدة فانّ رأي العلماء في اصلها كرأيهم في الساميين . فانّهم لا يتفقون في تعيين مهدهم الاوّل وان كانوا يجعلونـهُ في آسية ليس بعيدًا من البلاد التي سبق القول فيها بأنّ الساميين اخوة الآريين سكنوها في طورهم التاريخيّ

ولبيـان ذلك نكتفي بما يأتي وهو انّ العلماء مهما تقدّموا في الدروس التاريخيّة المتعلّقة بنشأة الجنس البشري زاد ايضًا توجُّه ابصارهم الى ذلك القسم من آسية المتقدّمة الذي سوريّة تُعدّ كمركز لهُ فيجعلون فيهِ مهد الانسانيّة . والحق يقال انك إن تصفّحت تاريخ الشعوب اربعـة آلاف سنة قبل المسيح وجدت البلاد الغربيّة متسكّعة في ظلمة الهمجيّة بينما نرى الجهات الواقعة في شرقيّ البحر المتوسّط مزدهرة بنور التمدُّن اعني وادي النيل والاصقاع الاسيويّة المجاورة لهُ من سواحل الشام وضفاف الفرات ودجلة . فيكون منشأ التمدُّن جنوبيّ غربي آسية ومنهُ انتشر جيلًا بعد جيل الى بقيّة البلاد حتى عمّ الامم المتنوّرة [2] . وبعبارة اخرى يصحُّ القول بانّ سوريّة كانت في مركز دائرة كبيرة من البلاد التي أَلفت العالم القديم حيث كانت نشأة التمدُّن الاوّل في المسكونة وان عجزنا عن بيان وقوع الفردوس فيها فكفاها فخرًا انّها كانت مهد تاريخ البشر .

---

١) راجع ما ورد في هذا الموضوع في تآليف العلماء الآتي ذكرهم : مسپرو في تاريخ الشعوب الشرقيّة (Maspéro : *Hist. anc. des peuples de l'Orient*, I. 550) ثمّ مقالـة ڤنكلر في شعوب آسية المتقدمة (H.Winckler : *Die Völker Vorderasiens*) في مجموعة « Der alte Orient » ثمّ كتاب غرِم (Grimme : *Mohammed*, 6)

٢) راجع جغرافيّة روكلو (Elisée Reclus : *Asie Antérieure*, 1, 2)

ومن ثمَّ نقول ايضاً عن سوريَّة أنَّها من الاقطار التي استوطنتها المستعمرات البشريَّة الاولى إن لم تكن اوَّل ارض وطئها الانسان بقدمهِ . وما لا ريب فيهِ انَّ سوريَّة قد تفرَّدت مع بلاد بابل والقطر المصري بكونها حفظت اقدم ما وُجد من الآثار المنبئة بوجود الانسان الناطقة باعمالهِ الاولى . وهو لعمري مجدٌ اثيل احرزتهُ لها في ميدان لم يجارِها فيهِ الَّا القليل

٢

موقع سوريَّة الجغرافيّ

لسوريَّة فضلًا عن كونها من مواطن البشريَّة الاولى فضلٌ آخر وهو موقعها العجيب في وسط المعمور . فانَّها قائمة في حدود الشرق كالحارس يصونها وهي مع ذلك قسم صالح من حوض البحر المتوسّط الذي يوصلها باقطار الغرب تراها منفصلةً عن آسية المتقدّمة بجبال طورس الشامخة وبصحاري جزيرة العرب يصلها بافريقية برزخ دقيق برزخ سويس واقعةً على سواحل البحر المتوسط الذي كان يُعدّ الى اواسط القرن السادس عشر كبحر المسكونة كلها فأسرع سكَّان الشام وسلكوا هذه الطريق اللاحبة ودخلوا ذلك الباب الواسع المفتوح في وجه نشاطهم وتقاطروا الى الجزائر النازحة والبلاد السحيقة الواقعة في الغرب فطبعوا فيها صورة تمدُّنهم وآثار حياتهم . فكأنهُ تبارك وتعالى لم يجعل سوريَّة على جوار البحر المتوسط الذي اضحى منذ ٣٠٠٠ سنة من اخصّ سُبُل التمدُّن الَّا ليجعل اهلها في مقدَّمة روَّاد المدنيَّة ونَقَلة الأُلفة فقاموا بهذه المهمَّة احسن قيام مدَّة نيّف والف سنة

قد قلَّد الله كلّ شعب دعوةً يفيد بها الهيئة الاجتماعيَّة . امَّا خاصَّة الفينيقيين واهل سوريَّة فانَّ دعوتهم انَّما كانت نشر التمدُّن . نعم انَّ التمدّن بلغ في بابل واشور مبلغاً اعظم منهُ في انحاء الشام كما انَّ عقول الاشوريين لم تكن أقلّ توقُّداً من جيرانهم .

لكنَّ فعلهم في نشر الترقّي المدنيّ كان دون فعل الفينيقيين . فماذا انقصهم لذلك ؟ انهم لم يُعطَوا هبةً نالها السوريُّون فامتازوا بها في كلّ اجيالهم تزيد الاقدام على نشر المشروعات . لانَّ الاشوريين لم يجدوا بقربهم باباً بحريًّا يخرجون منهُ الى بقيَّة انحاء العالم وينشّطهم على العمل ويشدّد ازرهم المتوسّط في المعاملات بين الشعوب المتباينة وكلّ ذلك قد اصابهُ السوريُّون لوجود موطنهم بين بلاد متوغّلة في التمدُّن وبلاد جديدة كانت منتظرة نعمة هذه المدنيَّة . وكان السوريُّون دون جيرانهم البابليين والمصريين قدرةً وثروة فسدُّوا ما ينقصهم من هذا الوجه بما اتاحهم الله من حسن الموقع والمنافع الجغرافيَّة

ولمَّا نالت سوريَّة هذا المقام في الوَضع الطبيعيّ صارت في كلّ الازمنة هي الوصلة بين الشرق والغرب تنـوط بهما جميعًا دون ان تختصّ باحدهما . فان اعتبرت سكَّانها ولغتها ورسومها فهي شرقيَّة . وان لحظت جيرتها من بحرٍ غربيّ ومعاملاتها المتوالية مع الامم الساكنة في حوض البحر المتوسط واخلاق اهلها المتنوّعة العامَّة وميلهم الطبيعي الى التهاجر ومخالطة الشعوب ومعاطاة الاشغال فهي اشبه بالغرب

ولذلك تراها اذا تصفَّحت تاريخها القديم كمعبر ومجتمع كانت تتصافح فيهما كلّ الامم القديمة فتتلاقى فيهما كأنها في بلادها جميعاً . وكان الله سبحانهُ وتعالى قد قضى ان يكون هذا الالتقاء سلميًّا جامعاً للقلوب وربَّما تبلبل نظام الخالق بسوء نيَّات الشعوب فصارت سوريَّة ساحةً للقتال جرت فيها الدماء سيولًا بدلًا من ان تصير سوقًا لتجارة الارض ومرسحاً للألفة والتحابّ . فكم من امَّة طمعت في اقتناء سوريَّة وبذلت دونهـا كلّ غالٍ ونفيس خصوصاً في ايام الاشوريين وفي عهد الفراعنة . فكانت منافعها الجغرافيَّة تتحوَّل لها الى ويلات وشرور . وقد قامت بعد هذه الدول دول اخرى تختلف اسماً وجسماً لكنَّها لم تختلف فعلًا . وكما قدم الى سوريَّة رعمسيس الثاني ونبوكدنصَّر كذلك جاءها الاسكندر وكثيرون غيرهُ ترى كتاباتهم واسماءهم مرقومة في متحف طبيعيّ عجيب تحت القبَّة الزرقاء اعني بهِ مضيق نهر الكلب (١

فلمَّا رأى ملوك بابل واشور ما خصَّ الله بـهِ بلاد سوريَّة من خصب التربة ومن حسن الموقع للمعاملات التجاريَّة احبُّوا ان يجعـلوا البحر المتوسّط تحت سيطرتهم

---

١) اطلب كتابنا تسريح الابصار (ج ١ ص ٨–٩)

لتسهيل المواصلات بين بلاد الشـام ووادي دجلة والفرات وتلك لعمري كانت مسئلة حيويّة اذ بها تنفتح الطرق التجاريّة فتُنقل الى جهات الغرب مرافق الهند وثروتها (١ . فما كان من امرهم لتحقيق غايتهم الّا ان يتعقّبوا آثار القوافل الكنعانيّة التي سبقتهم الى الاستيلاء على الشام وكان يحدوهم ايضًا الى سيرهم الى الامام رغبتهم في مبارزة فراعنة مصر وهم لم يعرفوا دولةً أُخرى تقوى على ان تحولهم دون انجاز مقاصدهم فتنزع من ايديهم السلطة على آسية (٢ . وكان لهم سبب آخر ينهض هممهم ويدفعهم الى جهة البحر المتوسّط اعني حاجتهم الماسّة الى الخشب وكانوا في ذلك والمصريين سواء فلم يرضوا ان ينتفع الفراعنـــة وحدهم من غابات سوريّة الفاخرة لا سيّما ارزها الذي كانوا يتّخذونهُ لزخرفة مبانيهم وقصورهم حيث وُجدت آثارها في ايّامنا (٣

وهنا لا يجوز لنـــا ان نضرب الصفح عن امرٍ لم يكن في الحسبان وهو تأثير غابات لبنـــان في احوال اهلها وتدبير شؤونهم . فانَّ هذه الاحراج هي التي اكسبت الفينيقيين نقابة البحر لأَنَّ منها كانوا يستمدُّون الاخشاب اللازمة لتجهيز السفن فصاروا بذلك في مقدّمة الملّاحين يتولّون التجارة البحريّة مع البلاد البعيدة. لكنَّ هذه المنافع ايضًا قد حرَّكت مطامع الشعـــوب المحيطة بهم للاستيلاء على بلادهم . فترى كيف الاهواء البشريّة تتعرّض لأَحكامهِ تعالى فتبلبل النظام الذي سنَّهُ لكلّ بلاد . وقد سبق انَّ سوريّة في رسم الخالق وُضعت لتكون بلدًا وسطًا يجمع في التحابّ والالفة الشعوب المتنائية

واعلم انَّ اقطار الشام لم تشعر فقط بثقل وطأة الامم الشرقيّة لكنّها نالت ايضًا من موقعهـــا نعمًا عزّتها عن هذه المساوئ وخوّلتها منافع مشكورة ومننًا سابغة فانَّ وقوعهـــا بجوار بلاد اليونان كان سببًا لترقّيها في الصنائع والفنون ولتقدُّمها في ضروب العلوم . وكذلك استفادت من الرومـــان حسن سياستهم وتدبيرهم وصيانتهم

---

١) اطلب كتاب شرادر وونكلر في الكتابات المسماريّة والعهد القديم (Schrader-Winckler: *Die Keilinschriften und das alte Testament*, 37; 41; 46; 78)

٢) اطلب Comptes-rendus de l'Acad. de Berlin, 1906, p. 356 ثمَّ التاريخ القديم للمسيو مسبرو (Maspéro: *Hist. ancienne*, I, 392-3)

٣) اطلب كتابنا تسريح الابصار (ج ١ ص ١٣٠)

للسلام كما تعلّمت من امم القرون الوسطى ان تدافع عن المبادئ الدينيّة اذ رأت ما للدين من القوّة في طلب آثارهِ القديمة وصيانة معابدهِ التي لاجلها اهتزّت شواعر الوف من البشر فبرحوا المواطن حبًّا بها (١

ليس التاريخ الّا صدًى لاصطـدام الاهواء البشريّة ولما ينجم عن التحامها من النكبات ومن الحروب ومن الخرائب. وعلى خلاف ذلك السلام والخير والفضيلة فانّها لا يُسمع لها جلبةٌ. وبنـاء على هذا قد قال القائل: طوبى للأمم التي ليس لها تاريخ وهذا لا يصحُّ في سوريّة كما رأينا. وكان الأَولى بها وباهلها ان تبقى في عزلتها دون ان تستلفت اليهـا نظر العالم. لكن الشعوب كما الافراد لا يمكنها ان تؤثر لها خطّة تجري عليهـا باختيارها وتنسج على منوالها حياتها العموميّة لأنَّ الشعوب في التفكير والله في التدبير

*

اعلم انَّ الثروة والجمال موهبتان خطرتان واوَّل غوائلهما انهما يثيران الحسد على اصحابهما. قلنا انَّ الله سبحانهُ وتعالى اذ منح لسوريّة موقعًا اثيرًا جعلها كطريق عامّ يجمع بين ثلاث قارات العالم القديم وذلك انَّ سوريّة محصورة بين البحر والبادية ففيها وحدها طريق سهل يمكن سلوكهُ بين آسية وافريقية وقد ادرك الفينيقيُّون ذلك فجعلوها سوقًا واسعةً لتجارة الخافقين ومعبرًا متواصلًا لقوافل الامم. واضحى مع ذلك اهل السواحل السوريّة رؤساء البحر وفاقوا كلّ القدماء في خوض غمراتهِ مدّة قرون متعدّدة فمخروا عبابهُ قبل اليونان بزمن طويل. ولمَّا اراد البابليُّون وبنو اسرائيل ان ينشئوا لهم ملاحة ويعمّروا السفن لم يستطيعوا اتمام مرغوبهم الّا بأن يلتجئوا الى الفينيقيين(٢ وسليمان الملك راسل في ذلك حيرام صاحب صور كما ذكر الكتاب الكريم. لانَّ الفينيقيين كانوا اوقفوا نفوسهم ليكونوا سعاةً وعمَّالًا بين الشعوب الساكنة على سواحل البحر المتوسّط ففتحوا في كل مرفأ مكتبًا تجاريًا لمعاملاتهم. وسبقت صور وصيدا غيرهما من المدن في الاستعمار

---

١) اطلب الجغرافية التاريخيّة Georges A. Smith : *Historical geogr.*, p. 13

٢) راجع كتاب دليتش في موقع الفردوس (Delitzsch : *Wo lag das Paradies?*, p. 99)

فانّ اوّل مستعمرة يذكر التاريخ انشاءها ينسبها لتينك المدينتين. واليهما يعود الفضل في توسيع المعاملات التجاريّة وتعميمها بين الدول. فان المتاجرات كانت قبل ذلك محصورة بين الشعوب المتجاورة فتستبدل الواحدة ما يزيد على احتياجها مما ينقصها من محصولات جارتها. والتجارة على هذه الصورة ترتقي الى اوّل العالم. امّا الفينيقيون فانّهم انشأوا التجارة الكبرى اعني التجارة البحريّة فنالوا من الفخر ما لم يحصل عليه شعب آخر الى القرن السادس عشر اذ دخل فنّ الملاحة في طور جديد باكتشاف قارة اميركة (١). وما يزيد فضلهم انّهم اوّل من نهج تلك المسالك وكان المصريّون من قبلهم كما البابليّون والصينيّون منزوين في اصقاعهم يتنعّمون بهبات الطبيعة دون ان يفكّروا في نشرها بين غيرهم

وفي هذا لعمري عبرةٌ للمعتبرين لا سيّما اذا قابلوا بين صغر بلاد فينيقية وسعة مستعمرات اهلها وبعدها السحيق. وليس في ذلك ما تُنكر صحّتهُ او يُردّ برهانهُ لأنّ التاريخ قد بيّن مذ ذاك العهد انّ الدول التي ضاقت مساحة املاكها اذا ما كانت مجاورة للبحر في احدى جهاتها كانت اسرع الى الاستعمار وأحكم فيه من الدول الكبيرة ذات التخوم الفسيحة لأنّ هذه الدول لا يمكنها ان تستعمر في الخارج قبل ان تقوم باستعمارها الداخليّ فتحسّن املاكها وتستثمر اراضيها وكلّ ذلك يقتضي زمنًا مديدًا بل اجيالًا طويلة ويستفرغ قوى الأمة. ولو سهت عن ذلك وقدّمت الاستعمارات الخارجيّة عرّضت نفسها الى التهلكة كما حدث آخرًا لروسيّة التي تملك في اوربّة على انحاء متّسعة واقطار فسيحة بينها السهول القفرة التي لم تُحسن زراعتها فارادت ان تزيد في املاكها الاسيويّة الى حدود الشرق الاقصى فكان من امرها ما كان واصابها من الويلات ما هو فوق نكبات حربها مع اليابان. ولنا بيّنة على صدق هذا القول في تاريخ البرتغال والبندقيّة وجنوة وهولندة وفي ايّامنا هذه في تاريخ بلجكة فرأينا ما نالتهُ هذه الدول الصغيرة من الفوز والتقدّم في استعماراتها

ومثل البندقيّة حريٌّ بالاعتبار لأنّها جدّدت بعد الفي سنة اعمال الفينيقيين فنالت

(١) اطلب تاريخ التجارة في القدم (E. Speck: *Handelsgeschichte des Altertums*, I, 506–507)

في طرف البحر المتوسّط الغربيّ ما نالهُ الفينيقيّون في الطرف الشرقيّ . وكلا البلدين في موقع متشابه واهلهما مولعون على سواء بالعيشة البحريّة . وانّما بينهما فرق واحد وهو انّ الحركة الاستعماريّة للبنادقة ابتدأت من الغرب فبلغت الاقطار الواقعة في شرقيّ البحر المتوسّط (١

وقد سبق السوريّون وادركوا ما لموقع بلادهم من المحاسن وعرفوا انهم يصيبون الهدف اذا ما عانوا الاسفار البحرية وتكلّفوا اعمال التجارة فان توسّطهم بين الدول القديمة اعني بابل ومصر كان كافيًا لأن يكسبهم الثروة الواسعة فينقلون الى اهلهم السلع المتعدّدة ويبتاعون منهم محصولات بلادهم المتوفّرة فيربحون على الوجهين الارباح الطائلة اذ يبيعون بالاسعار الغالية ويشترون بالاثمان المتهاودة . وفي ذلك سرّ غناهم العظيم وكما انهُ كان اقوى مهماز لتنشيط اعمالهم

واليوم ان تروّيت في احوال الامم التجاريّة وجدت انّ اسباب ترقّيها تنوط باحد هذه الامور الثلاثة اعني وضعها الجغرافيّ كاتّساع سواحلها ثم تركيب طبقاتها بتوفر مناجم فحمها الحجري ثم احوالها الاقتصاديّة الدائرة على حرّية التبادل والمعاهدات التجاريّة المبنيّة على اصول قريبة وقوانين سهلة (٢ . فمن هذه الامور الثلاثة لا يسعنا الجواب على آخرها ونحن نجهل شروط التجارة بين الفينيقيين وبين غيرهم من الامم . اما الامر الثاني اعني الفحم فانّهم لم يكونوا اليهِ في حاجة لما اصابوا في جبالهم من ثروة الغابات التي تسدُّ حاجاتهم في تعمير السفن وهم لا يعرفون اذ ذاك تسيير السفن بقوّة البخار . فيبقى علينا ان نبحث عن الامر الاوّل فنبيّن الاسباب الجغرافيّة التي اكسبتهم احتكار التجارة البحريّة

ان نظرت الى لبنان رأيت سلسلتهُ تمتدُّ موازيةً للبحر لكنّها من مسافة الى اخرى تلقي في البحر رؤوسًا تنتصب فوقهُ وتشرف عليهِ اخصُّها الرأس الابيض بين عكّا وصُوْر ثمّ راس نهر الكلب ولا سيّما راس الشقعة الناطح بطرَفِهِ الهائل بين بترون وطرابلس

١) اطلب Edmond Demolins : *Comment la route crée le type social,* P. 347, 349

٢) اطلب مقالتنا عن التجارة في القرن التاسع عشر (المشرق ١٠ : ٣٠)

وليس بين هذه الرؤوس الضخمة مكان الّا لأودية حرجة عميقة او لسهول متوسطة في سعتها او لشقق مستطيلة من الرمل والصلصال تخترقها الصخور على صور شتّى منها داخل في البحر ومنها راكب بعضها على بعض ومنها المسنَّن ومنهـا المروّس والمدرَّج . فاقتضى على الاهلين الذين قطنوا في هذه الارض الحرجة بين البحر والجبل ان يوجّهوا بنظرهم الى مياه العرمرم لينالوا منها ما يسدُّ رمقهم امَّا بالصيد واما بالمتاجرة بين مدينة واخرى . فهكذا كانت صيداء مقاماً للصيد كما يدلّ عليهِ اسمها قبل ان تضحي مركزًا بحريًّا عظيماً

وهذه الملحوظات عن غرائب الساحل السوريّ كادت اليوم تبرح عن الخواطر بعد ان امتدَّت على سيف البحر طرق العربات بل مُدَّت الاسلاك الحديديَّة لقواطر البخار فيسير المسافر على الطريق السويَّة الممهَّدة دائرًا حول رؤوس الساحل وقاطعاً لركام الصخور دون ان يحجزهُ حاجزٌ اللهمَّ الَّا رأس الشقعة الذي لم يتمكَّن المهندسون من قطعهِ حتَّى الآن . ولكن هيهات ان تجد مثل هذه الطريق السهلة في المسالك القديمة فانك لو نهجتها لعلمت ما يتكلَّفهُ السائر في سيرهِ من المشقَّة لينتقل من وادٍ الى آخر وما يحول دون مرامهِ من توريبات السكَّة ومن المراقي الصعبة قبل ان يبلغ مكانًا قريباً لو امكنهُ قَطعهُ على طريق مستقيم . فلا بدع أن الاهلين منذ نشأت التجارة فكَّروا في تقصير هذه الطرق بالسلوك بحرًا وربَّما كانت الطريق البحريَّة هي وحدها الممكنة

وان قيل انَّ السواحل السوريَّة مكشوفة ليس فيها ملاجئ للسُّفن في وقت الانواء فضلًا عن انَّ عدَّة مرافئ كحيفا وطرابلس ولا سيَّما يافا لا يمكن الرسوّ قربها ايَّاماً طويلة في فصل الشتاء فكيف كان الفينيقيون يبحرون ؟ نجيب على ذلك انَّ الملاحة القديمة كانت تخالف ملاحتنا اليوم فانَّ البحريين ما كانوا يُقلعون مراكبهم الَّا في فصل الهدوّ وصفاء الجوّ فكانوا اذ ذاك يفضِّلون الوقوف عند الرؤوس او عند الجزر البحريَّة فلا يشعرون بهبوب النسيم حتَّى يسرعوا الى السير على الساحل من مدينة الى مدينة ومن رأس الى رأس . وكانت السفن الفينيقيَّة كبيرة مسطَّحة لا تغوص كثيرًا في المياه حتَّى انَّهـا كانت تستطيع ان تصعد النيل الى الاقصر (١ فكان الملَّاحون يواصلون

١) راجع التاريخ القديم لمسپيرو (Maspéro: *Hist. anc.*, II, 407)

سيرهم من ارواد الى طرابلس فبيروت فصيداء فصور راسين عند رووسها كما في طرابلس وبيروت او عند الجزُر المجاورة لها كما في ارواد وصيداء وصور ومستقين من العيون التي تُرى في كلّ هذه الامكنة جاريةً فيها ومخصبةً لها . اما في فصل الشتاء فترى مراكبنا اليوم اذا احسَّت بقرب النوْ اقلعت الى الغمر لئلَّا تغوص بالرمل او تُلقي بهـا العاصفة على الصخور. وكان الفينيقيون في فصل الشتاء في مأمن من ذلك يجُرُّون الى البرّ سفنهم الى ان تهدأ الريح وتزول العاصفة

امَّا اذا اعتبرت سواحل سوريَّة من حيث وضعها الجغرافيّ فانك تجد فيها مُسهّلات متعدّدة للملاحة القديمة فانّ مراحل السفن من مكان الى آخر كانت قصيرةً واذا ارست في محلّ صادفت فيهِ عيونًا دارَّة لا تنقطع وكذلك كان سيرها عاجلًا تجاري الساحل في خطّـهِ المستقيم دون ان تتريَّث بالخلجان المتَّسعة والمرافئ الباطنة وذلك فضلًا عمَّا يهبُّ في السواحل السوريَّة من الرياح الثابتة الهبوب المعتدلتهُ . فكل هذه الصفات لم تسمح للقدماء بان يتركوا شواطئهم سدًى كالدقعاء المقفرة تأوي اليها الضواري والكواسر وتسبح في مياهها النينان دون ان يستخدموها لمنافعهم امَّا للصيد وامَّا للمتاجرة

هذا ولا ننكر ان الساحل السوريّ مع صلاحيَّتهِ للملاحة لم يخلُ من بعض المخاطر كما رأينا وذلك لانكشافهِ وتعرُّضهِ للرياح الشماليَّة العاصفة وكثرة ما يتخلَّلهُ من الرؤوس والصخور البارزة لا ملجأ فيهِ للملَّاح مع ما يلقاهُ في سيرهِ الى الجنوب من المقاومة من قبل المجاري المضادَّة (١. فان كلّ ذلك يستدعي نظرًا صائبًا وحذاقة بالغـة في خوض البحر فكان ينال في هذا الجهاد اليوميّ خبرةً ليوسّع نطاق اسفارهِ البحريَّة التي كانت تساعدهُ عليها الغابات اللبنانيَّة اذ يجد في اخشابها ولا سيما ارزها ما يقوى بـهِ على مثل هذه الرحل البعيدة

وممَّا تجدي السواحل السوريَّة من النفع لاصحابها فضـلًا عن الملاحة التجاريَّة

---

١) وما قد تحقَّق بالاختبار انَّ للنيل فعلًا في استقامة السواحل السوريَّة لأن مجرى مياهِ مع الرياح التي تهبُّ على امتداد الساحل من جهة الجنوب الغربيّ قد جرَّ الرمال التي يجرفها في سيرهِ الى شواطئ فلسطين وجعلها متساويةً خصوصاً جنوبيّ الكرمل . (راجع ما قلناهُ سابقًا في تسريح الابصار ج ٢)

مجاورتها للجبال القائمة في وجه سكَّانها كأنَّها تدعو اهلها الى قطع مشارفها ليلقوا ما وراءها ما يقوم بمعاشهم في السهول الواسعة الخصبة التي تسدّها تلك الجبـال عنهم· ألَا ترى انَّ الساحل الفينيقي قليـل الاتّساع لا يستطيع اصحابه ان يستغلُّوا ريع الارض ممَّا لا غنًى عنهُ من القمح والزيت · وقد ذكر الكتاب المقـدَّس (سفر الملوك الثالث ف ٥) انَّ غاية ما طلبـهُ حيرام الصوري من سليمان الملك بدلًا من خدماتهِ مقدار من الزيت والحنطة · فهذه الحاجة في ساكن الساحل يُضاف اليهـا عدم وجودهِ لجزائر ينتفع من غلَّاتها وبعدهِ عن قبرس الحافلة بسكَّانها · كلّ ذلك صرف بنظر السوريّ الى جبلهِ ليفتح لهُ معبرًا يجتاز بهِ الى البقاع التي من ورائهِ فنقر في الصخور تلك المراقي الصعبة التي يقطعها المكاري مع بغالهِ بسرعة عجيبة وقدم ثابتة · وبسيرهِ هذا لا يلبث ان يعتـاد ما هو اوسع عملًا واجدى نفعًا فيتحوَّل الى قائد قوافل ولا يزال يجدُّ ويكدّ نافذًا في وسط اوديتهِ متوجّاً بين سيولها الجارفة ثمَّ راقيًا الى اعالي جبلهِ حتَّى يبلغ عطفهُ الآخر فيدخل في تلك السهول الداخليَّة الفسيحة التي تُعدّ كاهراء حنطة لا تنفد مستغلَّاتها وكان من هناك يضرب في الارض راحلًا الى انحاء العراق فيستجلب منهـا محصولاتها التي كان مواطنوهُ ينقلونها بحرًا الى الجزائر المجهولة الواقعة في بحر الظلمات

انهُ لناموس من نواميس الهيئة الاجتماعيَّة انَّ الدول التي تنحصر املاكها في حدود حرجة اذا كانت ثروتها واسعة ونقودها متوفّرة ان تطلب لضغطها منفذًا بتوسيع تجارتها والسعي وراء الاستعمارات · فقد ادرك اجدادنا السوريُّون والفينيقيون هذه الحقيقـة اذ ليس امرٌ جديد تحت الشمس فاستشفُّوا ما وراء البـلاد التي اعتبروها كحدودهم الشرقيَّة بلادًا غيرها لاحت لهم في اعماق الأفق نريد شبـه الجزيرتين الهنديّتين وما يُطيف بهما من الجزائر فاستوقفت تلك الاقطـار انظارهم بما تتضمَّنهُ من المرافق العديدة والثروة النباتيّة الواسعة واصناف الزهور الناصعة الالوان التي تفوق ما يُرى من ذلك في غيرها من الانحاء · فلم تثبّط همَّتهم المسافات الطويلة والعوائق المتعدّدة · فكانوا ينقلون من حدودها ما يستحبُّهُ تمدُّن ذلك الزمان لحاجاتهِ او لذَّاتهِ من افاويه وعطور وزيوت طيَّارة واقمشة زاهية وضروب القطنيَّات الهنديَّة الرقيقة والانسجة المشرقة الالوان واصناف الحرائر البهيَّة التي يبذل الباعة الدينار في حقّها بيدٍ سخيَّة · وكذلك

كانوا يستجلبون من الهند المعادن الثمينة كسبائك الذهب وصفائح الفضة واللؤلؤ والعقيق والياقوت وقطع الماس التي تزدان بها تيجان الملوك واكلّة الاميرات. وكان الناس لاعتبارهم لتلك البلاد يروون عنها العجائب والغرائب فيعدّون ارضها تبرًا وهواءها مسكًا وثمارها شفاء وقوّة وطيرها شبيهًا بالانسان في نباهته وحسنه

فتجارة الهند في تلك القرون البعيدة كانت تُحسب كثروة البلاد وغنى الشعوب كما حسبها بعد ذلك اهل القرون الوسطى. وكانت تلك التجارة تروج او تكسد على مقتضى امور الزمان وصروف الحدثان ينقلها من مظانّها الكلدان والعرب تأتي بها قوافلهم على طريق آسية الوسطى الى اطراف بحر العجم او البحر الاحمر وكان الفينيقيون يرحلون الى جهات بابل والى انحاء اليمن فينقلون تلك المحصولات الى المرافئ السوريّة فيصرفونها الى الغرب

*

وكان من نواميس العالم القديم أنّهم اذا ارادوا المتاجرة مع الاقطار النازحة يفضّلون في ذلك الطرق البرّيّة رغمًا عن طولها على خوض البحار وان كانت طريقها اقرب واقصر. وذلك على خلاف ما ترى في تجارتنا اليوم وهي تؤثر الطريق البحريّة على سواها فتسير المراكب الى اقصى ما تستطيع لأنهم يجدون في تفضيل البحر سرعةً فضلًا عن كونها اقلّ كُلفًا. لكنّ هذا النظام حديث ابتدأ منذ انتشرت الملاحة الشراعيّة الكبرى ولا سيما منذ اكتشاف القوّة البخاريّة. وكانوا قديمًا لا يركبون البحر الّا لمواصلة الطريق البرّيّة لأنّ الملّاحين القدماء كانوا اذا اقلعوا قاصدين بلدًا معلومًا لا يعرفون ما سينالهم في طريقهم من العاقات وخصوصًا ما سيلقون من الرياح الموافقة او المعاكسة فيعرفون ساعة خروجهم ولا يعلمون يوم وصولهم. ولذلك كان القدماء لا يتجشمون اهوال البحر الّا عند الضرورة الماسّة (١ وكان الفينيقيّون يرون في ذلك رأي غيرهم من الشعوب مع كونهم ادخلوا البحر في تاريخ العالم. وبينما نشاهد اليوم التجارة مترتّبةً على الملاحة منوطةً بها في المعاملات كانت على عكس ذلك في الزمن

---

(١) اطلب مقالة بيرارد في المجلّة الاثرية (V. Bérard, *Revue arch.*, 1899, I, 80)

القديم بريّةً محضاً · فلا نرى انـهُ خطَرَ على بال احدٍ ان يصرف القناطير المقنطرة لفتح قناة كقناة سويس او قناة پناما · فان نظرت مثلًا الى الحِمْيريين وكان لا يفصلهم عن مصر الّا بحر صغير ترى انهم كانوا يفضّلون على هذا السفر القصير في بحر القلزم طريقاً بعيدةً كانت القوافل تتبعها فتسير على سيف البحر الى وادي موسى ثمَّ الى غزَّة وهي الطريق التي كان يسلكها العرب الى زمن ابي سفيان والى اوائل تاريخ الهجرة · ولعلَّهم لم يختاروا البحر للاخطار التي كانت تتهدَّدهم في البحر الاحمر والسَّفر فيهِ صعب لكثرة صخورهِ وتعدُّد مجاريهِ وشواطئهِ الرمليَّة فضــلًا عمَّا كان في سواحلهِ من القرصان او اللصوص الذين يهجمون على الغرقى فينهبونهم او يستعبدونهم (١

من اراد ان يدرك ما اكسب سوريَّة سابقاً حسن موقعهــا من المنافع الاقتصاديَّة حيث كانت الطريق الواصلة بين الشعوب يجب عليهِ ان يجرّد فكرهُ عمَّا استفدناهُ اليوم من الاحوال الحاضرة وترقّي المواصلات البحريَّة التي اضحت في عهدنا الطريق اللاحبة التي تضمّ الامم العاملة الى بعضها كما صرَّح بذلك آخرًا جلالة الملك ليوبلد الثاني ملك بلجكة

إن اقرب الطريق وآمنها لتجارة الهند قبل اكتشاف رأس الرجاء الصالح انَّما كانت الطريق البريَّة على مسير وادي الفرات · اما في وقت الحروب فكثيرًا ما كانت تنسدّ هذه الطريق المثلى بين البحر المتوسّط وخليج العجم في وجه القفول التجاريَّة فتستبدلها بطريق اخرى كثيرة العقبات ذات اخطار جمَّة وهي طريق بحر القلزم او جزيرة العرب لكنَّ هــذا البحر لم يتجاسر احد ان يتجشَّم اخطارهُ قبل أن يتوفَّق هيپالوس الى اكتشاف الرياح المنظَّمة التي تُعرف بالمواسم (٢ وذلك في القرن الاوَّل للمسيح ومذ ذاك الحين فقط جرت بحرًا معاملات بين الهند وسواحل اليمن ومرافئ بحر القلزم مباشرةً

اما الطريق البرّيَّة التي كانت تقطع صحــاري العرب هي التي اكسبت اهل

---

١) اطلب تاريخ التجارة (Speck: *Handelsgeschichte*, I, 17-18)

٢) هي رياح تتناوب من الغرب الى الشرق ستَّة اشهر ثم تُنعكس ستّــة اشهر اخرى . والمرجَّح انَّ الافرنج استعاروا لفظة « mousson » مَوسِم من العربيَّة بواسطة اللغات الايبريّة . اطلب شروحنا في كتابنا « *Remarques sur les mots français dérivés de l'arabe* »

الجزيرة غنًى وازدهارًا لا سيّما السابئين والنبط والحِميريين والقريشيين

والفضل كلّ الفضل للفينيقيين اذ سبقوا فادركوا ما للطريق البرّية من عظم الشأن فانّ ثروة الهند ومرافق الشرق الاقصى ما كانت لتجد سبيلًا اوفق تجري فيهِ لتبلغ الى مركز العالم المتمدّن. وادركوا فوق ذلك انهُ اجدى اليهم ربحًا لو استلموا تلك المحصولات الجليلة في محطّاتها البعيدة ليخفّفوا بذلك عنــاء القوافل ويقتصروا بعض المراحل من طرقها الطويلة رغبةً في ضبط البضائع والتصرّف فيها قبل غيرهم . ومما فُطر عليهِ آل فينيقية ارتياحهم الى الدِلالة فانهم كانوا نِعَم السماسرة يتوسَّطون بين الباعة والمشترين ولا يريدون بينهم وبين الباعة وسيطاً فتتضاعف بذلك ارباحهم اذ يشترون رخيصاً ويبيعون غالياً فعليهم المعوَّل في كلّ المعاملات التجاريَّة لا يزاحمهم فيها احد ولا يقف المراقب على حقيقة متاجراتهم وبذلك اضحوا ارباب التجارة يدركون كنه اسرارها ولا يفوتهم شيء من وجوهها

وهذه المتاجرات عينهــا حدت بالفينيقيين الى تجهيز القوافل البرّية وقيادتها فنالوا بذلك قصبة السبق على من سواهم. لانّ الطرائق التجاريَّة في سالف الازمــان كانت مباينة لطرائقها اليوم (١ فكانوا اذا ارادوا تصريف بضائعهم انتقلوا مع القوافل الى حيث يرومون بيعها فيدرسون كلّ بلد ويتعلّمون لغتهُ ويختلطون باهلهِ ويفقهون عجرهُ وبجرهُ وكلّ ذلك لتتيسَّر لهم المتاجرة وتزيد ارباحهم. وذلك على خلاف ما نرى اليوم بعد اكتشاف السكك الحديديّة والبواخر فانّ البضائع تصل الى طالبيها دون ان يحتاج البائع الى ان يرافقها

وكان تدبير القوافل الفينيقيَّة يقتضي درايةً عظيمة وحذقاً بليغًا في المعاملات. ومما كان يترتَّب على رئيسها ان يُحسن نظامها ويؤلّف قلوب اصحابها ويجمع قواهم لنجاح المشروع كما انــهُ كان يسعى في طريقهِ بان يكسب ثقة الاهلين ويتقرب من امرائهم وينتهز الفُرص اللائقة لمبايعتهم ويتعرَّف ما يروج عندهم من الاسواق . وخلاصة القول كان يتَّخذ كلّ المعلومات اللازمة التي تزيد ثروتهُ وتوفّر ارباحهُ. وهكذا قد وصف لنا

(١ H. Winckler: *Keilinschriften*, p. 169

كتبة العرب تجّار القريشيين في القرن السابع للميلاد (١ وفي مقدَّمتهم ابو سفيان الشهير. قال ابن الاثير في اسد الغابة في تعريف الصحابة (٥ : ٢١٦) : «كان (ابو سفيان) تاجرًا يجهّز التجّار بماله ولموال قريش الى الشــام وغيرها من ارض العجم وكان يخرج احيانًا بنفسهِ وكانت اليهِ راية الرؤساء التي تسمَّى العقاب واذا حميت الحرب اجتمعت قريش فوضعتها بيد الرئيس»

والافادات السابق وصفها التي نالها الفينيقيُّون في رِحَلهم واسفارهم البرّيَّة والبحريَّة توسّلوا بهـــا لترقية تجارتهم وصناعتهم وتوسيع نطاقهما فانهم بصائب نظرهم وتهافتهم على الاعمـــال واحتكارهم للتجارة البرّيَّة والبحريَّة بلغوا في آخر الطور اليوناني الروماني مبلغًا راقيًا فكأني بهم جعلوا في زمانهم الطرق الجائزة في سوريَّة الشماليَّة وفي سوريَّة الوسطى وفي بادية الشام نفسها بمثابة ترعة سويس في عهدنا. وكانت بور سعيدهم تَدْمر الَّا انَّ تدمر كانت وقتئذٍ ملكة الصحراء تميس في مبانيهـــا الفاخرة ومحاسنها الساحرة ليست كبور سعيدنا التي هي عبارة عن مدينة مستحدثة لا يُرى فيها غير حوانيت الباعة ومكاتب الحسَبة ومقامات المتاجرين بل كانت تدمر مزدانة بالهيا كل تأخذ بالابصار لروقتها البديعة وتماثيلها المحكمة الصنع مما يخلب القلب ولا تجد لهُ اثرًا في بور سعيد

فدعنا بعد هذا نمتّع النظر بحسن وضع سوريَّة وبموقعها الجغرافي الفريد ونحن نجدها في مفرق الطرق التجاريَّة التي كان يسلكها العالم القديم فانَّها كانت قريبة من البرزخ الذي يصل آسية بافريقية بين وادي النيل ووادي الفرات وهناك كانت اعظم امم تلك الاعصار وارقاها في التمدُّن. وسوريَّة في وسطها تبعد مسافة يوم عن تخوم مصر وتكاد تتَّصل بمملكة اشور عند مجرى الفرات الغربيّ حيث يلتوي فيقترب من البحر. فانَّ هذا النهر متاخم لسوريَّة عند موقع قرقيش القديمة في المقــام المُعدّ لقطع سكَّة بغداد حيث لا يبعد عن البحر المتوسط في خطٍّ مستقيم اكثر من ١٥٠ الى ١٦٠ كيلومترًا. فما اسهل ما كان على الفينيقيين ان يتبطَّنوا وادي الفرات فيتبعوا بطائحهُ الى ان يبلغوا خليج العجم المتَّصل بها. وكانت ضفاف الفرات في تلك القرون حافلةً بالسكان متوفرة

١) اطلب كتاب العلَّامة مرغوليوث (Margoliouth: *Mohammed* p. 1)

المدن التي لا تزال آثارها ظاهرةً الى يومنا . وقد شهد على عمران تلك الجهات احد جغرافيي اللاتين يُدعى پمپونيوس ميلا (Pomponius Mela, III, 12) حيث وصف غنى الامم التي تقطن شمالي سوريَة وقد نسب ثروتها « الى خصب مراكزها وكثرة انهارها التي تجري فيها السفن فتسهل بها المبادلات التجاريَّة »

فترى من ثمَّ انَّ سوريَة كانت بموقعها العجيب اهلًا بان تصبح مركزًا لعلائق العالم القديم او قل بالحري انَّ الله جعلها رائدًا للتمدّن ووصلةً بين الامم العاديَّة اي المصريين والكلدان والامم الوسطى من يونان وومان اجداد عالمنا المستجدّ . ولو رقينا في سُلَّم الاعصار الى اوائل القرون المتوسّطة وجدنا اهل سوريَة يتأثَّرون اعقاب آبائهم فيتوسَّطون بين الغرب واواسط آسية فهم الذين ادخلوا التمدُّن اليوناني في مدرستَي نصيبين وجنديسابور كما انَّهم جلبوا الى الغرب مرافق تلك البلاد

٣

السوريون حمَلة التمدُّن القديم

فمن كلّ ما سبق لا يبقى للقارئ ريب في انَّ اهل سوريَة بتفرُّغهم للمبايعات وبتنقُّلهم في انحاء البرّ والبحر كانوا الرباط الوثيق بين سواحل البحر المتوسط والبلاد النازحة عنهُ ومزجوا مزج الماء بالراح الشرق العتيق بالغرب المترعرع . نعم انهم كانوا قبل كلّ شيء يعملون لاغراضهم ومصالحهم الخصوصيَّة الَّا انَّ عملهم هذا كان يفيد الشعوب ايضًا فيعمّم ما تكلّ منها من المحاصيل ويخرجها من عزلتها فينتفع كلّ شعب مما اصابهُ الآخر سواءٌ كان في الماديَّات او في الامور العقليَّة والادبيَّة والدينيَّة . وفي هذا لعمري جلُّ الفائدة لا سيَّما في تلك الازمنة التي كانت الشعوب لا تعرف بعضها الَّا في ساحات القتال . فالفينيقيون نقلوا الى الغرب تمدُّن وادِيَي النيل والفرات وعرَّفوا اهل تلك البلاد بمحصولات مصر وما بين النهرين واعمالهما الصناعيَّة بعد أن اخرجوها على هيئة جديدة توافق احوال الغربيين وتناسب حاجاتهم . ولعلَّهم اثاروا في قلوب تلك الشعوب

الجديدة رغبةً في الترقّي والنجاح ومهّدوا الطريق للفنون والآداب بين اليونان الذين ما كانوا ليبلغوا ذروة الكمال في الفنون الجميلة لولا توسّط الفينيقيين فانّهُ من المقرَّر انَّ التمدُّن اليوناني لم ينشأ بغتةً على غير استعداد وبدون تمهيد وانّما بُني على اساس سابق تقدَّمهُ نريد تمدُّن امم الشرق. وفضل الفينيقيين انهم كانوا حمَلةً لذلك الترقي القديم الى اليونان. فأغنوا الغرب بمحصولات الشرق وبمصنوعات الشام فانتبهت قرائح الغربيين الى مجاراتهم ومزاحمتهم في العمــل بعد ان اعملوا النظر في نحت التماثيل والدمى وفي حفر الحجارة الكريمة وفي صياغة الجواهر كما استلمها الفينيقيون من اهل مصر وبابل فزادوها تحسيناً. فهذه المصنوعات الفينيقيّة كانت للغربيين كلقاح لاذهانهم وشحذ لافكارهم أدّى بهم بعد قليل الى تلك العجائب الصناعيّة التي تفرَّد بها اليونان بعد زمن. وان قيل انَّ الفينيقيين لم يطلبوا في ذلك غير الربح والمكسب فنجيب انَّ فائدتهم الخاصّة لا تنفي الخِدَم التي ادّوها لغيرهم. والخدمة خدمةٌ ولو طُلب منها منفعة (١ ولعلَّ الكتبة لم ينسبوها قبلًا للفينيقيين لزعمهم انَّ الفينيقيين كانوا تجارًا لا يهتمّون بالفنون كمألوف عادة التجار ولجهلهم تأثير الصناعة الشرقيّة بالصناعة اليونانيّة

وقد اراد الله ان يعظّم هذه الدعوة الشريفة التي خوّلها للفينيقيين ليكونوا وسطاء ونَقَلةً للموادّ التجاريّة وللامثلة الصناعيّــة بان جعلهم سماسرة الافكار كما جعلهم سماسرة الاموال ليُعدّوا الشعوب الجديدة لقبول الآداب والعلوم. ومهما قلنا في إطرائهم فانّنا لن نبالغ وذلك ليس فقط لأنهم بلغوا بقوافلهم الى البلاد النازحة فوصلوا بين اطراف الاقطار واقاصي الاصقاع لكن ايضاً لانهم زوَّدوا الشعوب بآلة عجيبة كانت اعظم عامل للتمدُّن نريد صناعة الكتابة وحروف الهجاء

والحقّ يقال انَّ اختراع الابجديّة قد اجدى للبشر نفعاً قد خلّف وراءهُ الاختراعات التي تتباهى بهــا اعصارنا كفنّ الطباعة واكتشاف فوائد البخار والكهرباء. لانَّ بهذه الصناعة الكتابيّة انفتحت للمعارف البشريّة ابواب واسعة اذ بها نستطيع تدوين كلّ لغات العــالم حتى قبل فهمها. بها جرى تقلُّب عظيم في احوال الشعوب لكنهُ تقلُّب هادئ سلميّ غايتهُ التحابّ وتقريب الامم من بعضها

(١ اطلب تاريخ التجارة (Speck: *Handelsgeschichte*, I, 414, 426)

يقول الفلاسفة انَّ العادة طبيعة ثانية . يريدون انَّ الانسان لا يتأثر ممَّا اعتاد نظرهُ وانتلفهُ بالتكرار فانَّ العجائب الطبيعيَّة التي نراها كلَّ يوم تسقط من اعيننا . فكذا قلْ عن اختراع الابجديَّة . قال الاب ديلاتر اليسوعي : « ليت شعري ايوجد شيء اعجب من اختراع الانسان لعشرين الى ثلاثين علامة يتمكَّن بها على ان يترجم عن كلّ معاني قلبهِ وعواطف نفسهِ » وهذه الطريقة العجيبة في سذاجتها يعود الفضل في اختراعها وان شئت قُلْ في نشرها الى الفينيقيين . فانهم أبطلوا تلك الطرائق السابقة التي شاعت قبلهم بتوفير الصور الكتابيَّة وتمثيل مقاطع الالفاظ ورسم اصوات الكلام التي كان يتيه فيها علماء مصر وبابل . فنابت بحروف الهجاء عن تلك المئات والالوف من العلامات حروف قليلة تؤدّي كل تهجيات اللسان في لغات معظم الشعوب القديمة والحديثة

وهنا ايضاً قد لعبت الجغرافيَّة دورًا مهمًّا . قال لونزمان في تاريخ الشرق القديم (ج ١ ص ٤٤٨) : « كان ينبغي للشعب المدعوّ لتنظيم الكتابة البشريَّة وتكميلها ونشرها ان يكون شعباً تجاريًّا عاملًا لا يستغني عن مسك الدفاتر وضبط الحسابات التجاريَّة ويكون مع هذا متاخماً لمصر موسوماً بسمة التمدّن المنتشر على ضفاف النيل» . ولا نعرف في العالم القديم امَّة غير الأمَّة الفينيقيَّة كانت تقوم بهذه الشروط اذ كانوا بموقع بلادهم احقّ من سواهم بان يكونوا قوماً وَسَطاً متأهبين لنقل محصولات التجارة الى الاقطار البعيدة والسواحل النائية وهم مع ذلك مواصلون للاعمال مع مصر جارتهم

وقد نقل الفينيقيون الى البلاد السحيقة ليس فقط حروف الهجاء لتسهيل المعاملات بل كلّ مصنوعات بابل ومصر مع اعمال صناعتهم الوطنيَّة واضافوا الى ذلك ما نقلوه من الادوات المفيدة ومن الحيوانات الداجنة ومن احرار البقول . وقد وجد الأثريون في اقطار غربيَّة شتَّى ما كان اتى بهِ اليها الفينيقيون من المعادن وضروب الخشب والصمغ والانسجة والخزفيَّات وغير ذلك من المصنوعات التي اعدَّت للتمدُّن القبائل الغربيَّة المستوطنة للغابات . وقد جرى السوريون على هذه الطريقة في نقل اختراعات الشرق ومحصولات التمدّن نحو الف سنة حتَّى اثَّر مثالهم في قلوب اولئك السكان فاخذوا ينهجون منهجهم ويتعقَّبون مدارجهم

قال بمبونيوس ميلا السابق ذكرهُ (ك ١ ف ٢) : « ان الفينيقيين قوم جهابذة

حذّاق يحسنون آداب الحرب ويستفيدون من منافع السلم . هم الذين وضعوا حروف الهجاء فاستخدموها لاعمال شتّى واخترعوا فنوناً عديدة وهم ايضاً الذين سبقوا الى خوض البحار وتقدّموا الشعوب في الحروب البحريّة »

جاء في كتاب حديث للعلّامة ڤكتور بيرار دعاهُ « الفينيقيون والاوديساة » (V. Bérard: *Les Phéniciens et l'Odyssée*) : انَّ جغرافيّة منظومة اوميروس الاوديساة مبنيّة غالباً على المعلومات التي استفادها ذلك الشاعر المفلق من الفينيقيّين » . ثم استشهد لتأييد قوله بالجغرافي سترابون حيث قال : انَّ الفينيقيين ارشدوهُ الى معرفة وصف البلدان (οἱ γὰρ Φοίνικες ἐδήλουν τοῦτο) . وكتاب المسيو بيرار مشحون بالتفاصيل والادلّة المثبتة لسيطرة الفينيقيين على البحار (اطلب المشرق ٩ : ٢٣٤)

ولما اراد سنّاحريب ملك اشور ان يجهّز لدولتهِ اسطولاً بحريًّا في الخليج العجمي لم يجد من يقوم بعملهِ غير الفينيقيين . قال في احدى كتاباتهِ : « قد اقمتُ في نينوى رجالاً من الحثّيين (وكان الحثيون من سكان سوريّة) أسرتُهم قوسي فعمّروا لي مراكب كبيرة على مثال بلادهم فجهّزتها باللّاحين الصوريين والصيدونيين الذين قبضتهم يدي »

وقد حفظ اهل فينيقية السيادة على البحار حتى في عهد اليونان بعد فتوحات الاسكندر الذي جرى على مثال سنّاحريب في تجهيز المراكب . وقلّما تجد في تواريخ اليونان كاتباً يذكر سفينةً لا يكون ربّانها سوريًّا او فينيقيًّا

٤

السوريون دُعاة الدين

هذا ولاهل الشام فخرٌ آخر غير المفاخر السابقة فانّهم ليس فقط توسّطوا بين الدول القديمة المتمدّنة والامم التي منها اشتقّت الشعوب المستحدثة لكنّهم ايضاً نالوا امتيازاً آخر فدعاهم الله لتربية العالم الادبيّة والدينيّة فصاروا متوسّطين بين الله والانسان ومن هذا

القبيل كانوا هم السابقين لم يأخذوا الامر من سواهم . نعم انَّ التمدّن البابلي والمصري كان بلغ في الصنائع والفنــون مبلغاً عظيماً والفينيقيون استفادوا من ذلك وافادوا غيرهم لكنَّ الفراعنــة وملوك اشور كانوا من حيث الآداب والاخلاق بعيدين عن الكمال لا يعرفون من العدل والرحمة غير اسمها فيستسلمون للجور ويعتبرون انفسهم بمثابة آلهة يتصرَّفون برعاياهم كيف شاؤوا لا يبالون بمـا ينتظرهم لدى الديَّان من المسئوليَّة عن اعمالهم . وان كان من بعدهم قد غلب على الشعوب التالية روح الدماثة واضحى التمدّن الجديــد مبنيًّا على العدل والمحبَّة فالفضل في ذلك الى المستشرعين الصالحين والى الرســل القديسين والى الانبياء الابرار الذي نشأُوا في سوريَّة فلسطين وبالاخص الى ذاك الذي كان اكبر من المشترعين واشرف من الانبياء المسيح ابن الله

فانَّ لاهوت الخالق وصفاتــهِ العجيبة لم تظهر في مكان من الارض ظهورها في سوريَّة فلسطين فلاح نور التوحيد فيهــا ومنها امتدَّ الى بقيَّة الشعوب فادخلها في طور جديد من الترّقي والفلاح . ولذلك ترى عيون الانسانيَّة متَّجهة منذ الفي سنة الى تلك البلاد مهد الاديان الموحدة حيث جرت أحداث التوراة الخطيرة وتجلّى الحقّ سبحانــهُ لعبادهِ فغيَّرت انوارهُ هيئة المجتمع الانسانيّ

فقد اصاب من دعا سوريَّة فلسطين ارضاً مقدَّسة . كيف لا وفيها حدثت اعجب العجائب وبها تنوط ذكرى اشرف الاعمال واعظم الرجال بحيث يصحّ القول عنها انــهُ ليس فيها شبرٌ الَّا وقد صلَّى فيها نبيّ . ولو اعتبرتَ اخبار الانجيل الطاهر وحدها وجدت اربعــة اخماسها قد جرت في الجليل وليست بلاد الجليل الَّا قسماً من سوريَّة متَّصلًا بفينيقية الجنوبيَّة وطالما دخل الجليل في حيّزها وتبعها في حكمها ونظامها . ولو بحثت عن مواطن الرسل الحواريين لوقفت عليها في سواد عكا وصور وكان لهاتين المدينتين مراكز تجاريَّة في كلّ ساحل فلسطين . وكما انَّ العهد القديم في سفر الملوك الرابع (١٧ : ١٩) قد اتَّسع في اعمال ايليَّا النبيّ في تخوم صور كذلك يروى العهد الجديد آثار ابن الله في سواحل فينيقية بين اهلها الكنعانيين . وزد على ذلك انَّ الكنائس المسيحيَّة الاولى قد نشأَت في اواسط سوريَّة وشمالها وانَّ اسم النصارى شاع اوَّلًا في انطاكيَّة وقد صارت تلك الكنائس كمثالٍ حذا حذوهُ من اتى بعدها . وعليهِ يستحقُّ السوريون هنا ايضاً وبنوع أَحرى ان يُدعَوا سماسرة الآداب ودعاة الدين فتقدَّموا على اليونان والرومــان

الذين مشوا على آثارهم في دعوة العالم الى المسيح (١ . قال مُنتَلَمبرت الخطيب الشهير في كتابهِ عن نسّاك الغرب (Moines d'Occident, I, 142) « انّ الدين كما عزّة السلاح كما فخر الآداب كلّ ذلك قد جرى على سنّة مقرّرة راهنة وناموس ثابت فانتقل من الشرق الى الغرب. بدا التمدّن وبدت القوّة من الشرق على مثـال النور وكما ان النـور لا يزال يزداد بهاء وحسناً على قدر ما يتقرّب من الغرب كذلك التمدّن والعزّ زادا في الغرب بعد ان ظهرا في الشرق »

فترى ما لسوريّة من النصيب العظيم في ترّقي الشعوب فانها هي السابقة والفضل كما قيل للمتقدّم فيجوز لكل رجل ان يعتبر سوريّة كوطنهِ الثاني لانّ منهـا نال حياتهُ الادبيّة ان لم ينل حياتهُ الزمنيّة. ولهذا السبب لم تزل اوربّة توجّه بالحاظها الى البـلاد التي منها اخذت مصدر حياتها العقليّة والادبيّة وكان قدماء النصارى اذا صلّوا جعلوا الشرق قبلتهم فيوجّهون بابصارهم الى الاراضي المقدّسـة والى الجلجلة وقبر المسيح . وكان ضوء السّحر يذكّرهم باسرار دينهم وكانوا يطلبون ان تُدار رؤوسهم الى الشرق في قبورهم لترتاح عظامهم الهامدة بتوجيهها الى منبع ايمانهم . هذا فضـلًا عن الوف الالوف الذين لم يرغبوا في حياتهم الّا شيئاً واحداً زيارة تلك الاماكن المقدّسـة التي شرّفها ابن الله بحياتهِ وموتهِ فيتجشّمون لذلك اعظم الاخطار ويقاسون اصناف الاتعاب بجلّ امانيهم وقصوى بغيتهم. قـال أحد هؤلاء الزوّار في القرن الخامس عشر ابرهارد اللحياني (Eberhard le Barbu) كنت بلاد ڤرتمبرغ : « انّ ثلاثة اشيـاء لا يجوز الترغيب فيها ولا الردّ عنها وهي الزواج والحرب وزيارة الاراضي المقدّسة فانّها كلها ربّما ابتدأت ابتداء حسناً فتنتهي على غير المرغوب » وفي قولهِ هذا اشارة الى الصعوبات التي كان يلقاها زوّار ذلك الزمان. على ان هذه الانصاب والخاطر لم تقوَ على ضبط جماهير الزوّار الذين لم يزالوا منذ عهـد قسطنطين الكبير يتواردون بلا انقطاع الى الاراضي

---

١) اطلب كتاب هرنك A. Harnack : *Mission und Ausbreitung des Christentums* (409-410) وقد اثبت فيهِ اسماء البلدان التي نشأت فيها كنيسة مسيحيّة منذ القرن الاوّل للنصرانيّة

المقدّسة كما تشهد على ذلك اخبار رِحلهم المتعدّدة التي دوّنها في اسفار شاعت في كلّ جهات المعمور وبين كل طبقات الناس

*

وقبل ختامنا لهذا الفصل الذي كتبناهُ في موقع سوريّة وجعلناهُ كتوطئة لابحاثنا في جغرافيّة الشام ينبغي لنا ان نضيف اليهِ بعض ملحوظات عموميّة

من خواصّ الشام كما سبق القول ان لها حدودًا ظاهرة وتخومًا مقرَّرة . وفي ذلك فائدة كبيرة لأنَّ تخوم البلاد بمثابة حدود الاملاك وحواجزها التي تصونها من كلّ تعدٍّ ومخاصمة . وفي الواقع ترى جهات الشام مفروزة عمَّا سواها فلا تستطيع ان تخلط بينها وبين البلاد المجاورة لها كآسية الصغرى مثلًا لانَّ بين الشام والاناضول طودًا شاهقًا يفوق بارتفاعهِ جبال البيراناي الذي يفصل فرنسة عن اسبانية وهو اعظم مهابةً منهُ . كذلك من جهة الشمال الشرقيّ نهرٌ وهو الفرات معدَّل عرضهِ ٥٠٠ متر يفصل الشام عن بلاد ما بين النهرين . امَّا الفاصل بين الشام ومصر وانحاء العرب فبحرٌ بلا ماء اي البوادي القفرة الواسعة التي يسهل دونها قطعُ البحار وقد بيَّنَّا قبلًا ان البحار صارت اليوم من اسباب الوصال وهيهات ان يصدق ذلك في الصحاري والقفار

وخلاصة الكلام انَّ بلاد الشام مجموعٌ منفردٌ قائمٌ بذاتهِ لا يمتزج بتخومهِ غيرهُ ليست كأنكلترَّة معتزلة عمَّا سواها مفتوحة الثغور لمن يطلبها . لكنَّ هذه العزلة لم تعرّض بلاد الشام للفتور والخَبَل كما جرى لبلاد الصين وراء حائطها الكبير بل قاسمت البلاد المتمدّنة في حركتها وناهيك بالحركة بركةً وخصبًا وترقيًا . وقد اثبتنا في ما سبق انَّ الشام رأت من تقلُّبات الدول وفتوحاتها ما قلَّ لبلد آخر ان يختبر مثلهُ . فانَّ الامم القديمة تجاوزت تلك التخوم وخرقت تلك الحواجز وعدَّت الشام كطعمة تتنازعها مطامع « ذُباب مصر ونَحل اشور » كما قال اشعيا النبيّ (٧ : ١٨) . وكانت هذه الامم تعتبر فتح الشام وفلسطين كاعظم فوز تفوز بهِ لأَنها كانت تجد في هذه البلاد معبرًا اكيدًا لتصريف تجارة الهند في مواني بحر الشام وبابًا واسعًا لفتح افريقية وآسية المتقدّمة . وهذا الحكم قد خطر منذ نحو ٥٠٠٠ سنة على بال سرغون احد ملوك بابل فأثبتهُ في بعض مآثرهِ

وقد سبق لنا القول في سبب انتقال الحركة التجاريَّة العموميَّة في عهدنا . فعلَّة ذلك انَّ القطب الذي عليهِ كان مدار الحركة التجاريَّة لم يَعُد في مكانهِ مارًّا في وسط بلاد الشام بل تحوَّل عن ممرّهِ فصار يمتدُّ في طريقين أُخريين اما في شرقي الشام واماً في غربيها . وليس هذا الخلل الوحيد الذي تدلّنا عليهِ القوانين الجغرافيَّة فانَّنا نرى خللًا آخر يضعِف هذه البلاد تشير اليهِ الجغرافيَّة ايضاً

*

تشبه سوريَّة في هيئتها الطبيعيَّة مربَّعًا كبيرًا يقيس طولهُ ثماني مرَّات عرضَهُ لأَنَّ طولهُ من جبل طورس الى جبل سينا لا يقلّ عن ١١٠٠ كيلومتر بخلاف عرضهِ الذي لا يتجاوز معدَّلهُ ١٥٠ كيلومترًا . وكلّ يعلم انَّ مثل هذا التباين في الاقيسة يضرُّ بالموازنة ويمنع الارتباط والوحدة بين جهات البلاد . لأَنَّ الجسم السياسيّ اذا امتدَّت اطرافهُ فبعُدت عن مركز الحكم خفَّ فعلهُ فيها . ومن ثمّ ترى الانحاء تطلب التفرُّد فتضعف القوَّة العموميَّة . وهذا ممَّا يظهر اليوم في بعض البلاد رغمًا عن الروابط العظيمة التي تستعين بها الدول في عهدنا لضمّ اطرافها وتوحيد عناصرها كاحتكار القوَّة وتعميم التعليم والجنديَّة الالزاميَّة وغير ذلك ممَّا تفرَّدت بهِ الدول الحاليَّة . مثال ذلك ما تجدهُ في ايطالية فانَّ الحكومة الواحدة تحكم على بلاد مختلفة طبائع واغراضاً كبلاد بيامنتي في الشمال وبلاد صقلّية في الجنوب وحتَّى الآن لم تقوَ الحكومة على مزج هذه العناصر المتباينة وتوحيدها

ويضاف الى هذا الخلَل في تركيب سوريَّة الجغرافيَّة خلل آخر ليس باقلّ ضررًا منهُ بوحدة ادارتها نريد سلاسل جبالها التي تخترق البلاد فتمنع اختلاط طوائفها وتوحيد عناصرها . كما ترى في سويسرة وجهات الاناضول حيث ارتفعت ايضاً الجبال الشاهقة فاضرَّت بامتزاج اقسامها . والتاريخ يعلمنا انَّ الدول الكبرى كانت تجعل مراكزها في السهول . اما سهول سوريَّة فتراها بعيدة عن مركز حركتها معتزلةً في طرفها الشماليّ الشرقيّ وتلك الجهة اشبه ببادية مقفرة وهي منزوية معتزلة فلا تستطيع ان تنشأ فيها مدينة عامرة تحيي الاطراف بنفوذها

وما هو اخطر من ذلك انَّ هذه الجبال السوريَّة التى يبلغ معدَّل علوّها ٢٠٠٠

متر تقوم في وسط البلاد كحاجز متواصل يفرد كلَّ طائفة في مكانها ويؤثر في حياتها فاصلًا كلَّ قسمٍ عن اخيهِ بحيث لا يمكنهُ ان ينال منهُ فائدةً لترقيهِ وتمدُّنهِ . لاسيما انَّ هذه السلسلة تمتدّ من الشمال الى الجنوب وهي وجهة اقلّ نسبةً لامتزاج الشعوب من وجهة الغرب الى الشرق لان السكَّان اذا انتقلوا تابعين لدرجات العرض امكنهم ان يعتادوا تغيير الاحوال الجوّيَّة بخلاف الذين يتبعون درجات الطول فانهم يُبلَون بمقاساة المظاهر الجويَّة التي لم يعتادوها

وزد عليهِ انَّ جبال الشام تنفصل في سوريَّة الوسطى الى سلسلتين متوازيتين لا تكاد الثانية تختلف في علوّها عن الاولى . وهذه السلسلة الجديدة تُدعى بالجبل الشرقيّ تمتدُّ شُعَبها على نواحي دمشق وبادية تدمر وحوران وما وراء الاردن . والجبلان اشبه بحائطين هائلين بينهما البقاع والغور كوادٍ غريب يبلغ منهبطهُ عند طرفهِ الجنوبيّ اي بحر لوط عمقًا لا يقلّ عن ٤٠٠ متر تحت سطح البحر المتوسّط

والحقّ يقال انَّ الطبيعة احسنت الى سوريَّة في شيء . اذ حصَّنتها بسور من الجبال لكنَّها افرطت في توفير هذه الجبال في قلب البلاد . فانَّ السائر الذي يتوغّل من سواحل الشام الى الجهات الداخليَّة يلقى في مسيرهِ خمسة انحاء جغرافيَّة تختلف احوالها كلَّ الاختلاف في حرارتها وهوائها ونباتها مع قلَّة اسباب المواصلات بينها لأَنَّ السلسلة الكبيرة التي تمتدّ طولًا في وسط سوريَّة لا تنقطع انقطاعًا محسوسًا الَّا عند علوّ طرابلس حيث توصل جبل النُّصيريَّة باوَّل منعطف لبنان آكامٌ قليلة الارتفاع

ولو قطعتَ سوريَّة تبعًا لخطّ الهاجرة اي من الشمال الى الجنوب لوجدت فرقًا كهذا . فان الطبيعة قد قسَّمت سوريَّة الى خمس او ستّ كُوَر مختلفة السعة تعزلها عن بعضها الانهار او الجبال بحيث تستطيع كل كورة ان تكون منفردة عن اختها (١ وكذلك في الشمال البلاد المرتفعة الواقعة بين الفرات ومصبّ العاصي . وفي الوسط بلاد البقاع بين سلسلتي لبنان غير المتساويتين . ثمَّ دمشق وغوطتها من جهة وفينيقية من جهة أُخرى . واخيرًا في الجنوب مجموع بلاد متباينة كأَنها طبقات درجيَّة ترتفع فوق بعضها على جانبي وادي الاردن شمالًا ويمينًا

---

١) اطلب تاريخ الامم الشرقيَّة للعلَّامة مسپرو (ج ٢ ص ١٤)

وممَّن لحظوا هذه الاختلافات الغريبة التي خُصَّت بها انحاء الشام جغرافيٌّ عربيٌّ من مشاهير كتبة القرن العاشر نريد شمس الدين ابا عبدالله محمَّد بن احمـد المعروف بالمقدسيّ وكان اصلهُ من الشام فانهُ دوَّن في كتابهِ الموسوم « باحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » ملحوظاً جغرافيًا يدلّ على توقُّد ذهنهِ ودقَّة فكرهِ قال في وصف اقليم الشام (في الصفحة ١٨٦) :

ووَضع هذا الاقليم ظريف . هو اربعة صفوف : الاوَّل يلي بحر الروم وهو السهل رمالٌ منعقدة ممتزجة يقع فيهِ من البلدان الرملة وجميع مدن السواحل . والصفّ الثاني الجبل مشجَّر ذو قرى وعيون ومزارع يقع فيهِ من البلدان بيت جبريل وايليا (١ ونابلس واللجُّون وكابل وقدَس والبقاع وانطاكية . والصفّ الثالث الاغوار ذات قرى وانهار ونخيل ومزارع ونَيْل يقع فيهِ من البلدان ويلة وتبوك وصغر واريحا وبيسان وطبريَّة وبانياس . والصفّ الرابع سيف البادية وهي جبـال عالية باردة معتدلة مع البادية ذات قرًى وعيون واشجار يقع فيها من البلدان مآب وعمَّان واذرعات ودمشق وحمص وتدمر وحلب . وتقع الجبال الفاصلة مثل جبـل زيتا وصدّيقا (٢ ولبنان واللكام وسرَّة الارض المقدَّسة في الجبال المطلَّة على الساحل »

وكلّ هذه الفروق في الوضع الطبيعي قد علَّلت بتتابع الأيام اطوارًا تاريخيَّة مختلفة وكثيرًا ما عاش اهل تلك الانحاء يجهل بعضهم بعضاً . فالجبليُّون يتحصَّنون في مشارفهم الطبيعيَّة كما في قلاع حريزة وكذلك اهل المنعطف الشرقي كانوا مبتعدين عن سكَّان السواحل . وهؤلاء لا يفكّرون الَّا في سفنهم وبحريَّتهم لا يكترثون لمن توطَّن السهول الداخليَّة . وقد أدَّت بالفينيقيين عزلتهم وحبُّهم للتفرّد انَّ كلّ فئة كانت تقتصر نظرها الى قطعـة من الارض ورثتْها من اجدادها فتكتفي امَّا برأس ساحليّ وامَّا بخليج او جزيرة كما ترى في ارواد وجُبيل وصيداء وصـور لكلّ منها استقلالها النوعيّ . ولهذا السبب نرى السوريين منذ اقدم الاجيال « منقسمين الى عدَّة طوائف متخاصمة تسعى كلّ واحدة منها حتى اصغرها في حفظ منافعها الخاصَّة ولا تزال تدافع بالحرب العوان عن قطعة من الارض او بعض فدادين من المزارع او بعض الاحراج الجبليَّة . فترى القتال

---

١) القدس الشريف

٢) جبل زيتا هو جبل الزيتون وصديقا جبال بلاد بشارة

قائماً على ساق بين هذه المقاطعات فيستولي عليها الخراب والدمار كأن عدواً مغواراً دخل فيها واعمل فيها السيف والنار» (١

وان اعتبرت تاريخ سوريّة وجدت هذا الاقليم متقسماً الى ايالات منفردة تسكنها العشائر المنفصلة. ففي سوريّة تعدّدت روساء القبائل وشيوخ الطوائف ورؤساء الرُّبع فيجد محبُّ المسكوكات والمكاتبات مادّةً واسعة لدرس آثارهم لكنّ المؤرخ يتيه في بيداء اقسامهم السياسيّة

وكانت نتيجة هذه الانقسامات الشعبيّة والتفرُّقات في الأغراض والاملاك انّ البعض وجدوا فيها ما يوافق مطامعهم ويعظّم اشخاصهم لكنّها اضعفت القوى وقسمت الكلمة. وهذا ما نراهُ في تاريخ سوريّة في اقدم الآثار تشهد عليهِ مراسلات تلّ العمارنة التي ترتقي الى المئة الخامسة عشرة قبل المسيح (اطلب تصريح الابصار ج ١ ص ٧١—٧٩) فتؤخذ من هذه المكاتبات انّ دُوَلًا عديدة كانت تتزاحم مذ ذاك في سوريّة منها في السهول ومنها في الجبال بل كانت كلّ مدينة عبارة عن دولةٍ يتحصّن فيها اهلها ويردّون غارات الدولة المجاورة. ولو شاء المسافر لقطع في اليوم الواحد تخوم عدّة املاك مستقلّة. هذا ما ورثهُ تاريخ الشام بكثرة التقاسيم الجغرافية والحواجز الطبيعيّة



١) راجع مسبرو في تاريخهِ المذكور

كَتبةُ العرب وجغرافيَّة سوريَّة

ذكرنا في مقالتنا السابقة بطيّب الثناء احد جغرافيي الاسلام شمس الدين المقدسي. وليس هو الكاتب الوحيـد من العرب الذي ضمَّن تأليفهُ الفوائد المتعدّدة في وصف سوريَّة. وفي نيَّتنا ان نعود مرارًا الى ذكر هؤلاء الكتبة في اثناء مقالاتنا الآتيـة عن هذه البلاد. وعليهِ أردنا أنْ نفرد لهم فصلًا كاملًا ليكون القرّاء على بصيرة من شهاداتهم ويقدّروا كتاباتهم قدرها

١

الجغرافيُّون العرب الاقدمون

كان اوَّل فتح سوريَّة على يد القائد الكبير خالد بن الوليد الذي دخل دمشق بعد اواسط السنة ٦٣٥ للميلاد ثمَّ أتمَّ فتح بقيَّة بلاد الشام في السنين التالية. فلمَّا انتشرت العلوم بين العرب في القرن التاسع اخذ كَتَبتهم في ذكر الشام ووصف محاسنها وواصلوا هـذه المصنَّفات الى اواخر القرن الخامس عشر فمنهم من اتَّسع في وصفهِ ومنهم من اقتصر على بعض الفوائد فلو جُمعت كلّ هذه المآثر المدوَّنة في زمن لا يقلُّ عن ستـة قرون لاندهل الأُدباء من وفرتها. والحقُّ يُقال ان كتبة العرب في الابحاث الجغرافيَّة كما في غيرها من الفنون قد خلَّفوا لنا من الآثار ما لا يجاريهم في كثرتهِ غيرهم من الشعوب. فيتحتم علينا ان نبيّن شأن هذه التآليف ونعرّف قدرَها وما يُمكن العلماء ان يستخلصوا من فوائدها

*

لو تتبَّعنا تاريخ العرب في الازمنة العريقة في القدم لوجدناهم مزدانين بخلال فريدة للضرب في البوادي وللسياحة في البلدان . تصفَّحْ سفر التكوين لموسى كليم الله فانَّهُ قد ذكر غير مرَّة عرب البادية في ايَّام الآباء بعد الطوفان منــذ ابرهيم الخليل الى يوسف الحسن وغاية ما يُستنتج من اوصافهِ انَّ العرب كانوا في ذلك الوقت ما عهِدَهم التاريخ في الاجيال التابعة . فانَّهم يظهرون لنا كقوم رُحَّل يقودون القوافل ويتجشَّمون الاسفار للمتاجرة وقد جعل الله في يدهم زمام حيوان صبور يزيد نفعهُ على منافع الخيل المطهَّمة نريد الابل المعروفة بسُفُن البرّ . وهذا الوصف لا يختلف ذَرَّةً عن احوال العرب في كرور الدهور حتَّى القرن السابع بعد الميلاد حيث ترى قريش تتولَّى قيادة الاقفــال وتمتار الميرَ وتنقل السلع الى اسواق العراق والشام واليمن والحبشة ومصر

وليس بين التاجر الرحَّالة والجغرافيّ المخطِّط للبلدان مدًى واسع فانَّ المسفار يحتاج كالجغرافيّ الى التنقيب عن أحوال الأُمم والامكنة التي يتردَّد اليها فيتبَّصر في مرافقها ويدرس طبــاعها ويبحث عن ثروة تربتها وغلَّاتها وطُرُقها وطوارئ هوائها من حرّ وقرّ وكلّ ذلك يباشرهُ الرحَّالة لمنفعتهِ الخاصَّة كما يتولَّاهُ الجغرافيّ لنفع العموم . ومن هنــا تعرف ان درس الجغرافية من انجع الوسائل واكفلها بالربح في التجارة الواسعة

وممَّا زاد العرب نشاطاً في درس البلدان واعانهم على الرصود الجغرافيَّة التي خُصَّت بمراقبتها طباعهم ما اتاحهم الله من الفتوحات العظيمة في القرنين السابع والثامن . فانَّ سلطتهم بلغت ما وراء البــلاد التي اتصلت اليها يد الاسكندر ذي القرنين . فلا غروَ انهم حــاولوا معرفة الاقطار التي جعلها الله في حوزتهم فاسرعوا الى تقويمها وتحديد ثغورها واستطلاع خواصها . وقد ساعدهم على ذلك ما وقفوا عليــهِ من المصنَّفات الجغرافيَّة السابقة لعهدهم من اوضاع الهنود والفُرس واليونان والرومان ممَّا نُقل الكثير منهُ الى العربيَّة . وكان العرب من أجدر الناس بان يبنوا لعلم الجغرافيــة صرحاً شاهقاً منيفاً بما توفَّر لديهم من الوسائل الضامنة لبلوغ هذه الغاية الشريفة وذلك بان يضيفوا معلوماتهم الى معلومات اسلافهم . وسوف نذكر سبب قصورهم عن هذه البغية الجلّى

وان نال البعض منهم من ذوي المدارك العالية اسهماً رابحة من المجد فكادوا يفوزون بقصبة السبق في هذا الميدان الجليل

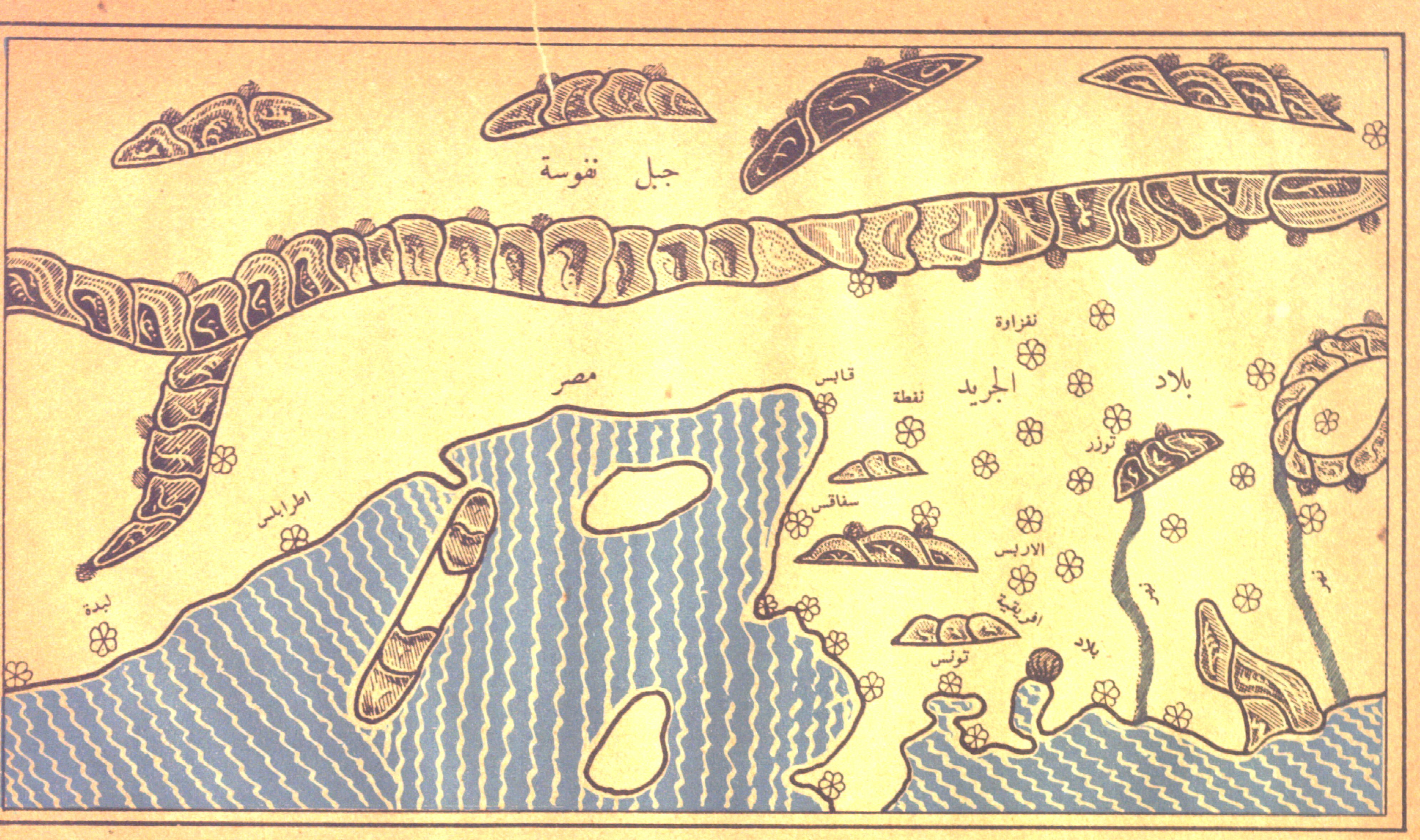
ومماَّ يجب الاقرار بهِ فضل كتبة العرب في وصف البلدان وتعريف خواصّها. وذلك مدخل العلوم الجغرافيّة ومقدّمتها يكفي للقيام بهِ ان يكون الكاتب باصرًا متروّيًا يُحسن مراقبة المرئيّات دون ان يحتاج الى شيء من الآلات الرصديّة او من العلوم الاعداديّة. فمن ذلك انهم احكموا معرفة اواسط آسية فاصلحوا أُمورًا عديدة مما رواهُ قبلهم اليونان والرومان رامين كلامهم على عواهنهِ. مثال ذلك ما افادنا الرومان عن الصين حدساً وسمعاً أمّا العرب فانّهم تفقّدوا مملكة ابن السماء بل بلغوا بلاد كورية ولعلّهم ادركوا حدود اليابان. وقس على ذلك قارة افريقية فان الرومان جعلوا الصحراء حدودها فلم يعرفوا ما وراء تلك المفاوز المجهولة. اما العرب فانّهم تجاوزوا تلك الحدود وطافوا في مجاهل افريقية الى قلب تلك البلاد. وهم اوّل من الجر الى جزيرة مدغسكار فعرّفوا موقعها

اما الجغرافيّة العلميّة فانّ معلومات العرب فيها محصورة ضيّقة النطاق. فانّ معرفتهم مثلًا لأعراض البلاد قد تعقّبوا فيها آثار القدماء فاصابوا أو اخطأوا كلّما اصاب أو اخطأ اسلافهم. امّا خوارطهم ورسومهم لهيئة البلدان فانّها غريبة الاشكال بعيدة عن مظانّ الحقّ (١ وقد اثبت منها المشرق مثالًا ملونًا فراجعهُ (المشرق ٣ : ١١٢٨) وها نحن ندوّن هنا مثالًا آخر ننقلهُ ببعض الوانهِ عن كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » للشريف الادريسي كما يُرى في احد مخطوطات مكتبة باريس العموميّة. ولعلّهُ احكمُ وأتقنُ ما وضعهُ العرب من الخرائط فانّ البحر فيها مرسوم باللون الازرق ومجاري الانهار بالاخضر (٢. واغرب ما في هذا الأثر انّ صاحبهُ سعى بتصوير سلسلة الجبال بتخطيطات

---

١) اطلب تاريخ الجغرافية لسان مرتين وفول (Vivien de S[t] Martin: *Histoire de la Géographie*, 265; K. Weule: *Geschichte der Erdkenntnis und der geogr. Forschung*, 129-125)

٢) راجع Bulletin de l'Académie d'Hippone, 1896-1898, p. 42-13 واشار صاحب الخريطة الى المدن بانجم او دوائر مذهّبة



خريطة للشريف الادريسي

مقطَّعة (١ كما يشير اليها الجغرافيُّون المحدثون بعد أَن حسَّنوا هذه الطريقة وزادوها دقَّــةً

هذا وان في رواياتهم واوصافهم نفسها مبالغات هي من الغرابة بمكان ينبغي على العــاقل أَن لا يقبلها الَّا بعد الروَيّة والانتقاد وهذه النقيصة تعمُّ زمانهم حيث كانت العلوم الطبيعيَّة في مهدها

وممَّا يؤْخذ على كثيرين منهم آفة النقل والسرقة فانَّهم يروون ما سبق اليهِ غيرهم بحرفهِ دون الاشارة الى التآليف التي نقلوا عنها . وربَّما خُدع القارئ بكثرة الشواهد في بعض الامور ولو تروَّى لوجد انَّها كلَّها راجعة الى مصدر واحد وانَّ الخلَف نسخوا عن السَّلَف دون فرقٍ يُذكَر في اللفظ والمعنى . ودونك ما كتبهُ في هذا الصدد شمس الدين المقدسيّ وغايتهُ ان يبيّن بقولهِ فضل تأليفهِ على تآليف من تقدَّمهُ . وكلامهُ مع طولهِ جديرٌ بالاعتبار يوقفنا على طريقة بعض كتبة العرب في مصنَّفاتهم الى زمن المؤَلف في القرن العاشر قال :

اعلم اني اسَّستُ هذا الكتاب على قواعد محكمة واسندتهُ بدعائم قوية وتحرَّيت جهدي الصواب . واستعنت بفهم اولي الالباب . . . فما وقع عليهِ اتفاقهم اثبتهُ . وما اختلفوا فيهِ نبذتهُ . وما لم يكن لي بدٌّ من الوصول اليهِ والوقوف عليهِ قصدتهُ وما لم يقرّ في قلبي ولم يقبلهُ عقلي اسندتهُ الى الذي ذكرهُ او قلتُ زعموا . ووشَّحتهُ بفصول وجدتها في خزائن الملوك

وكل من سبقنا الى هذا العلم لم يسلك الطريق التي قصدتها ولا طلب الفوائد التي اردتها . امَّا ابو عبدالله الجَيْهانيّ فانهُ كان وزير امير خراسان وكان صاحب فلسفة ونجوم وهيئة فجمع الغرباء وسألهم عن الممالك ودَخْلها وكيف المسالك اليها وارتفاع الخُنَّس منها وقيام الظل فيها ليتوصَّل بذلك الى فتوح البلدان ويعرف دخلها ويستقيم لهُ علم النجوم ودوران الفلك . ألا ترى كيف جعل العالم سبعة اقاليم وجعل لكل اقليم كوكبًا مرَّةً يذكر النجوم والهندسة وكرَّة يورد ما ليس للعوام فيهِ فائدة وتارةً ينعت اصنام الهند وطورًا يصف عجائب الهند وحينًا يفصل الخراج والردّ ورأيتهُ ذكر منازل مجهولة ومراحل مهجورة ولم يفصّل الكُوَر ولا رتّب الاجنــاد ولا وصف المدن ولا استوعب ذكرها بل ذكر الطرق شرقًا وغربًا وشمالًا وجنوبًا مع شرح ما فيها من السهول والجبال والاودية والتلال والمشاجر والانهار وبذاك طال كتابهُ وغفل عن اكثر طرق الاجناد ووصف المدائن الجياد . واما ابو زيد البلخي فانهُ قصد بكتابهِ الامثلة وصورة الارض بعد ما قسمها على عشرين جزءًا ثم شرح

١) واشار كذلك بالوان مختلفة الى طبقات الجبال الجيولوجية

كل مثال واختصر ولم يذكر الاسباب المفيدة ولا اوضح الامور النافعة في التفصيل والترتيب وترك كثيرًا من امهات المدن فلم يذكرها وما دوَّخ البلدان ولا وطئ الاعمال . ألا ترى ان صاحب خراسان استدعاه الى حضرتهِ ليستعين بهِ فلمّا بلغ جيحون كتب اليهِ « ان كنت استدعيتني لما بلغك من صائب رأيي فان رأيي يمنعني من عبور هذا النهر » فلمّا قرأ كتابهُ امرهُ بالخروج الى بلخ . وامّا ابن الفقيه الهمذاني فانهُ سلك طريقة أُخرى ولم يذكر الّا المدائن العظمى ولم يرتب الكُوَر والاجناد وادخل في كتابه ما لا يليق بهِ من العلوم مرة يزهد في الدنيا وتارةً يرغب فيها ودفعةً يبكي وحينًا يُضحك ويلهي . وامّا الجاحظ وابن خرداذبه فان كتابيهما مختصران جدًّا لا يُحصل منهما كثير فائدة

ثمَّ عاد المؤلف بعد هذا باسطر الى تبرئة نفسهِ من جناية السرقة فقال(ص ٦) :

لا نذكر شيئًا قد سطَّروه ولا نشرح امرًا قد أوردوهُ الّا عند الضرورة لئلّا نبخس حقوقهم ولا نسرق من تصانيفهم

ومع هذا ترى القدسي نفسهُ بعد قولهِ عن ابن خرداذبه انهُ « مختصر جدًّا لا يُحصل منهُ كثير فائدة » ينقل عنهُ كل أقيسة مراحلهِ وتفاصيل أُخرى عديدة دون ان يذكر اسمهُ وهو يفعل بابن الفقيه فعلهُ بابن خرداذبه فيأخذ عنهُ نصوصًا كثيرة ولا يذكر اسمهُ إكثر من ثلاث مرَّات مع انهُ يلومهُ لادراجهِ اشياء عديدة في كتابهِ لا طائل تحتها

ومما نأخذهُ على جغرافيي العرب انَّهم لم يكتفوا بوصف بلاد مخصوصة بل وسَّعوا نطاق عملهم الى جغرافيَّة الارض كلّها باقاليمها وقد جروا في ذلك مَجْرَى المؤرخين الذين ارادوا تدوين اخبار العالم كلّهِ والممالك جمعاء فكانت نتيجة هذا العمل انَّهم لم يُعطوا البلاد حقَّها من الوصف . وكذا يُقال عن بلاد الشام التي لا تشغل في تآليفهم الّا مكانًا ضيّقًا ولو قصروا النظر اليها وحدها لأَدَّوا حقوقها واستوفوا معانيها ولعلَّهم فعلوا ذلك لعلمهم بندرة الكتب لتكون تآليفهم جامعة لشتات التاريخ ولوصف البلدان ونحن مع إقرارنا بهذه المنفعة تتأسف على قلَّة من تعمَّقوا في تعريف بلادنا . ألا ترى مثلًا ابا الفداء وموطنهُ بلاد الشام لو اجتزأ بوصف بلاده بدلًا من وصف كلّ البلاد لكان كتابهُ تقويم البلدان اجزل نفعًا واكمل وصفًا يحتوي من التفاصيل ما لا يُرى في غيرهِ كما فعل الهَمْدانيّ في « صفة جزيرة العرب »

وقد بقي علينا ان نورد هنا اخصّ المطبوعات الجغرافيَّة لأَننا في المقالات التالية سوف نشير اليها مرَّات عديدة . فها نحن نذكرها مع بيان خواصها وفضل اصحابها . وقد إكتسب المستشرقون شكر العلماء اذ وجَّهوا الانظار الى اخصّ النصوص التاريخيَّة

والجغرافيَّة فنشروها وقرَّبوا بنشرها منافعها وادنوا مواردها بحيث امكن المنتقد ان يتبيَّن ما تتضمَّنهُ من الفوائد والفرائد

وكان الشرق حقيقًا بان يؤازر المستشرقين بالعمل لكنَّ اهل الشرق قد شُغلوا عن ذلك بما صرفهم في نشر التآليف الجغرافيَّة القديمة اللهمَّ الَّا القليل منها. وهذه المطبوعات نفسها خالية من النظر الانتقادي لا ترى فيها شيئًا ممَّا يدلّ على البحث والتنقير كالروايات المختلفة والمقابلة مع النصوص المتشابهة والفهارس الواسعة. ولا نستثني من هذا النقد طبعة صبح الاعشى للقلقشندي التي ابرزتها آخرًا المطبعة الخديويَّة وان كانت تفضل غيرها من الطبعات الشرقيَّة في هذا الباب. لكنَّ همَّة المستشرقين قد سدَّت هذا الخلل في ما نشروهُ في المانية وفرنسة من النصوص الجغرافيَّة

وبين البلاد التي اصابت السهم الافوز في نشر التآليف الجغرافيَّة بلاد هولندة. فانَّ هناك طُبع ذلك المجموع الفريد في ثمانية مجلَّدات المعروف بمجموع جغرافيي العرب (Bibliotheca geographorum arabicorum) وقد قام بهذا العمل رجلٌ همام من كبار المستشرقين احرز لهُ بذلك مجدًا اثيلًا ألا وهو العلَّامة دي غوي (de Goeje) احد اساتذة كليَّة ليدن. وقد اودع هذا المجموع اجلّ المصنَّفات كالمسالك والممالك للاصطخري ولابن حوقل والمسالك والممالك لابن خرداذبه ومختصر كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني وكتاب الاعلاق النفيسة لابن رسته والتنبيه والاشراف للمسعودي وكتاب البلدان لابن الواضح اليعقوبي. وممَّا سعى بطبعهِ داود مولّر من اساتذة فينَّة كتاب صفة جزيرة العرب. ولكلّ هذه التآليف حواشٍ وتذييلات معتبرة وفهارس واسعة فضلًا عن جداول لغويَّة للالفاظ الغريبة والمفردات العويصة التي تفرَّد بها بعض الكتبة دون البعض. وفي هذه الجداول من الفوائد ما لا يُنكَر ومن شأنها ان تساعد على تأليف معجم مطوَّل للغة العربيَّة يكون مبنيًّا على النصوص القديمة لا يكتفي فيهِ صاحبهُ بنقل القواميس السابقة

ومن افضل ما عُني المسيو دي غوي بنشرهِ كتاب «احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم» للامام شمس الدين المقدسي فانَّ في هذا الكتاب من المحاسن ما لا تراهُ في غيره لاسيما في احوال الشام على عهدهِ اي في القرن العاشر ولذلك قد احببنا ان نكتب فيهِ فصلًا منفردًا

المقدسيّ وجغرافيَّة سوريَّة

في القرن العاشر للميلاد

المقدسي من افضل كتبة الجغرافيَّة بين قدماء العرب فنتَّخذهُ كمثال يوقفنا على ما بلغهُ اولئك الائمَّة من الكمال في هذا الفنّ واخصّ ما نطلبهُ منهُ المعلومات التي اثبتها في كتابهِ عن سوريَّة وطنهِ كما عرفها في زمانهِ اعني في القرن العاشر للمسيح. وهذا ما حدا بنا الى ارصاد مقالةٍ خاصَّة للنظر في تأليفهِ

١

المقدسيّ وتأليفهُ

ليس المقدسي اوَّل من تولَّى وصف الشام لكنَّهُ يفوق على من تقدَّمهُ بوفرة معلوماتهِ وبحسن اسلوبهِ . والحقّ يقال انهُ تحرَّى في عملهِ طريقةً نظاميَّة تجعل تأليفهُ في مقام رفيع

ولد شمس الدين ابو عبدالله محمَّد بن احمد بن ابي بكر البنَّاء نحو السنة ٣٣٦ ﻫ (٩٤٧ م) في القدس الشريف فدُعي لذلك بالمقدسي وهو الاسم الذي ندعوهُ بهِ اختصارًا في ما يأتي. وكان جدُّهُ مهندسًا بارعًا في الشام وهو الذي ابتنى ميناء عكا كما افادنا حفيدهُ اذ قال فيهِ (ص ١٦٢ و١٦٣):

« لم تكن (عكا) على هذه الحصانة حتى زارها ابن طيلون (طولون) وقد كان رأى صور ومَنَعتها واستدارة الحائط على ميناها فاحبَّ ان يتَّخذ لعكا مثل ذلك المينا فجمع صنَّاع الكورة وعرض عليهم ذلك فقالوا: لا يهتدي احد الى البناء في الماء في هذا الزمان. ثم ذكر لهُ جدُّنا ابو بكر البنَّاء وقيل: ان كان عند احد علمُ هذا فعندهُ. فكتب الى صاحبهِ على بيت المقدس ان ينهضهُ اليهِ. فلمَّا صار اليهِ وذكر لهُ ذلك قال: هذا امرٌ هيّن عليَّ بفِلَق الجُميز الغليظة. فصفَّها على وجه الماء بقدر الحصن البرّي وخيَّط بعضها ببعض وجعل لها بابًا من الغرب عظيمًا ثم بنى عليها

بالحجارة والشيد وجعل كلّما بنى خمس دوامس ربطها باعمدة غلاظ ليشتدّ البناء. وجُعلت القلَق كلّما ثقلت نزلت حتّى اذا علم انّها قد جلست على الرمل تركها حولًا كاملًا حتّى اخذت قرارها ثم عاد فبنى من حيث ترك كلّما بلغ البناء الى الحائط القديم داخلهُ فيهِ وخيّطهُ بهِ. ثم جعل على الباب قنطرة فالمراكب في كل ليلة تدخل الميناء وتجرّ السلسلة مثل صور »

تعاطى المقدسيّ في اوّل امرهِ التجارة وتجشّم لذلك اسفارًا اعدّتهُ للدروس الجغرافيّة. وكان يشعر في قلبهِ ميلًا عظيمًا الى معرفة البلدان ولم يزل يقوى فيهِ ميلهُ الى أن انقطع الى ذلك الفنّ بتمامهِ فطاف كل بلاد الاسلام اللهمّ الّا السند والاندلس. ثم باشر نحو السنة ٩٨٥ تصنيف كتابهِ فبلّغهُ كمالهُ بعد ثلاث سنوات. امّا سنة وفاتهِ فلا تزال مجهولة وكذلك تفاصيل ترجمتهِ لا نعلم منها الّا القليل مما اثبتهُ عن نفسهِ في مطاوي كتابهِ الذي دعاهُ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم

ومن البديهيّ انّ الكاتب أحكم القسم المختصّ ببلاد الشام مسقط رأسهِ فتوسّع فيهِ. لكنّ تأليفهُ كلهُ يستحقّ الثناء قال المستشرق غلدميستر (Gildemeister) « انّ المقدسيّ قد امتاز بين بقيّة ارباب اوصاف البلدان بكثرة ملحوظاتهِ وسعة نظرهِ (١) ». وقال سپرنغر (Sprenger): « ليس من سائح تجوّل في البلاد كما تجوّل المقدسيّ ولا احد لحظ ما لحظهُ او روى معلوماتهِ مثلهُ بنظام وترتيب ». وكذلك العلامة بربيه دي مينار (B. de Meynard) يعدّ تأليفهُ ذا قيمة لا تُقدَّر (٢). وكل هذه الاقوال عين الصواب. امّا حُسن الاسلوب فلهُ المقام الاوّل فيهِ بين رصفائهِ السابقين والذين اتوا بعدهُ لم يبلغوا شأوهُ بل زادوا تقهقرًا. ومن تصفّح كتاب المقدسيّ استحسن طريقتهُ في الكتابة فانك لا تراهُ يضيف الى عملهِ الاضافات النافلة والاستطرادات الزائدة كما يفعل ابن رُسته وابن الفقيه وكذلك لم يدخل في اوصافهِ تعداد المراحل او مبالغ الخراج على طريقة مملّة شأن ابن خرداذبه في تأليفهِ. هذا فضلًا عن حسن نظر واصالة رأي مع ما يُبدي لوطنهِ من الحبّ الواجب دون ان يبخس حقوق بقيّة البلاد

---

١) في المجلّة الفلسطينيّة الالمانية (ZDPV, VII, p. 143)

٢) اطلب المجلّة الاسيويّة (JA, 1879 ², 271) وكتاب بروكلمان في آداب العرب (Brockelmann: *Gesch. d. arab. Litter.*, I, 230) ولاسيّما مقدّمة الدكتور دي غوي على القسم الرابع من مجموع جغرافيي العرب

ومما يستحبُّهُ القارئ فوق ذلك في مطالعة تاليف المقدسيّ حرصهُ على سياق الاخبار وتنسيق الاوصاف فترى الابواب متواصلة على احسن طريقة واضبط اسلوب لا يفارقه همّه في النظام وترتيب الموادّ على خلاف ما ترى في كُتب من تقدَّمهُ . مثال ذلك انهُ في كلامهِ عن كورة قنَّسرين جعل قصبتها حلب. وقد احسَّ بأن القارئ يعترض عليهِ في ذلك فسبق بالردّ على اعتراضهِ بما حرفهُ (ص ١٥٦):

« فان قال قائل: لِمَ جعلتَ قصبة الكورة حلب وههنا مدينة على اسمها. قيل لهُ: قد قلنا ان مثل القصبات كالقوّاد والمدن كالجند ولا يجوز ان تُجعل حلب على جلالتها وحلول السلطان بها وجميع الدواوين اليها وانطاكية ونفاستها وبالس وعمارتها اجنادًا لمدينة خربة صغيرة. فان قال: هلَّا استعملتَ هذا القياس في شيراز فاضفتَ اليها اصطخر ومدنها. قيل: لمَّا وجدنا باصطخر مدنًا احدقت بها وتباعدت منها استحسنًّا ما فعلناهُ ثمَّ والاستحسان في علمنا هذا ربَّما غلب القياس

وهي لعمري خطَّة محمودة أن لا يصف الكاتب الَّا ما رآهُ عيانًا وعليها جرى المقدسيّ فزاد في اعتبارنا مقامًا. وكذلك تراهُ ينبّه القارئ اذا ما احتاج الى وصف شيء لم يعاينهُ. مثال ذلك قولهُ (ص ١٢) عن اليمن: « امَّا طريق اليمن فلا اكاد اضبط مراحلها كغيرها من الكور غير اني اذكر ما عرفتُ واجمل ما سمعتُ »

امَّا طبعة هذا الكتاب فحسبُنا القول بان الذي تولَّى امرها انَّما هو احد افاضل المستشرقين العلَّامة دي غوي. وكان طبعها اوَّلًا سنة ١٨٧٧ ثم نفدت هذه الطبعة بعد مدَّة فاضطرَّ جناب ناشرها الى اعادة طبعها فانجز العمل في السنة المنصرمة. وفي ذلك دليل واضح على اقبال العلماء على هذا الكتاب وقلَّما تجد كتابًا علميًّا عربيًّا يحتاج الى طبعتين. ومن محاسن هذه الطبعة المستحدثة انَّ صاحبها اثبت فيها عدَّة فوائد جديدة استفادها من درسهِ الخاصّ ومن ملحوظات العلماء فجاءت هذه الطبعة الثانية غاية في الحسن سواء كان لضبط المتن (١ او لدقَّة الحواشي التي علَّقها في ذيل كل صفحة من الكتاب. فيا ليت ادباء الشرق يحذون في طبعهم للتآليف القديمة حذو المستشرقين في طبعاتهم فيخدموا العلم كما فعل ناشر جغرافيَّة المقدسيّ

ولكن دعنا الآن نواصل بحثنا في التأليف الذي نحن بصددهِ

---

١) قد ضبط جناب الدكتور اسم سَلَميَّة بلدة شرقيّ حمص بتشديد الياء المثنَّاة وعندنا انَّ الصواب كتابتها بتخفيف الياء كما هو شائع في تلك الجهة

٢

بلاد الشام على عهد المقدسيّ

اوّل ما افتتح بهِ المقدسيّ كتابهُ نظرٌ عموميّ في احوال الشام وهذه المقدَّمة حسنة اجمالًا لولا انَّ المؤلف افقدها شيئًا من فوائدهـا بزخرف سجعها . والاولى بمثل هذه المقدَّمات العلميَّة أن تُكتَب بسذاجة وكلام بعيد عن كلّ تصنُّع لئلّا يحيد الفكر عن الجوهر فينصرف الى الاعراض لاسيما اذا اتَّسع الكتبة في السجع وتجاوزوا الحدود كما فعل ابن جُبَير . فدونك ما كتب المقدسي في وصف الشام (ص ١٥١) :

« (اقليم الشام) جليل الشأن دار النبيّين . ومركز الصالحين . ومعدن البدلاء . ومطلب الفضلاء . بهِ القبلة الاولى . وموضع الحشر والمسرى . والارض المقدّسة والرباطات الفاضلة والثغور الجليلة والجبال الشريفة ومهاجر ابراهيم وقبره وديار ايُّوب وبئرهُ ومحراب داؤد وبابهُ وعجائب سليمان ومدنهُ وتربة اسحاق وأُمه ومولد المسيح ومهدهُ وقرية طالوت ونهرهُ ومقتل جالوت وحصنهُ وجبُّ ارميا وحبسهُ ومسجد اوريًا وبيتهُ وقبَّة محمَّد وبابهُ وصخرة موسى وربوة عيسى ومحراب زكريًّا ومعرك يحيى ومشاهد الانبياء وقرى ايُّوب ومنازل يعقوب والمسجد الاقصى وجبل زيتا ومدينة عكا ومشهد صدّيقا وقبر موسى ومضجع ابراهيم ومقبرتهُ ومدينة عسقلان وعين سلوان . وموضع لقمان ووادي كنعان . ومدائن لوط وموضع الجنان . . . ثم بهِ دمشق جنَّة الدنيا . وصُغَر البصرة الصغرى . والرملة البهيَّة وخبزها الحوَّارى وايليا الفاضلة بلا لأوى وحمص المعروفة بالرخص وطيب الهواء . وجبل بصرى وكرومهُ فلا تُنسى وطبريّة الجليلة بالدخل والقرى ثم البحر يمدُّ على طرفيه فالحمولات فيهِ اليهِ ابدًا وبحر الصين (١ متَّصل بطرفهِ الاقصى . لهُ سهل وجبل واغوار واشياء والبادية على تخومهِ كالزقاق منهُ الى تيماء . وبهِ معادن الرخام وعقاقير كلّ دواء . ويسَّار وتجار ولباقة وفقهاء وكتَّاب وصنَّاع واطبَّاء »

فترى من هذا الوصف انَّ بلاد الشام كانت وقتئذٍ غنيَّةً بمحصولاتها مُثريةً بتجارتها تزينها المدن العامرة والدساكر الخصبة لم تزل بحسن موقعها وعظم شأنهـا على ما كانت عليهِ سابقًا (اطلب المشرق ١٠ : ١٠٩) فتحفظ مقامها الخطير بين الاقطار . وكانت الشام

(١ يقصد ببحر الصين بحر قلزم كما سترى

مشحونة بالديار الواسعة والمنازل العامرة حتى يكاد الناظر يسهو عنهــا لكثرتها. قال المقدسي (ص ١٥٥ راجع ايضاً ١٧٦):

« وفي هذا الاقليم قرًى اجلّ واكبر من اكثر مدن الجزيرة (١ مثل داريّا وبيت لِهْيا وكفر سلّام وكفرسابا غير انّهــا على رسوم القرى معدودة فيها وقد قلنا انّ عملنا موضوع على متعارُف »

وكان صاحب هذه الاسطر قد أَلحق بوصفهِ للشام خارطةً كما فعل بسائر الاقاليم الّا انّ هذه الخارطة لم تُنشر بالطبع فلا يسعنا الحكم عنهــا لنوجّه اليهِ الثناء او اللوم كفعلنا بالخوارط التي رسمها كتبة العرب

وبعد هذه المقدَّمات ترى المقدسيّ يستقري كوَر الشام واحدةً واحدةً مباشرة من جهة الشمال وهو يحصيهــا ستَّة: قنسرين ثم حمص ثم دمشق ثم الاردن ثم فلسطين ثم الشراة. وهذه الكور توافق الخمسة الأجناد التي قُسمت اليهــا بلاد الشام منذ اوَّل الفتح الاسلامي. والكورة الاولى اي قنّسرين تنطبق مع ولاية حلب الحاليَّة تقريباً. لكنَّنا لا نفهم كيف استطاع المقدسيّ (ص ١٥٤) أن يُدخل فيها جوسيَّة الواقعة على مسافة ستّ ساعات جنوبيّ شرقيّ حمص. ولعلّ النسَّاخ تصرّفوا بتقديم بعض الاسطر او تأخيرها فشوَّشوا الترتيب. امَّا كورة الاردن فكانت تشمل في جملة مدنهــا طبريَّة وقَدَس وصور وعكا واللجُّون وكابل وبيسان واذرعات وذلك ما يوافق من انحائنا الحاليَّة كل متصرفيَّة عكَّا وقسماً من متصرفيَّة نابلس وقائمقاميَّة صور وبعض متصرفيَّة حوران. امَّا كورة الشراة فانّ المقدسيّ (ص ١٥٥) قد جعل « قصبتها صُغَر ومدنها مآب ومعان وتبوك وأَذْرُح وويْلة ومَدْيَن ». وصُغَر هذه هي المذكورة في التوراة كان موقعها جنوبيّ بحيرة لوط وقد استولى عليها الخراب منذ زمن طويل وسنعود الى ذكرها. هــذا محصَّل تقسيم كوَر الشام كما كانت في القرن العاشر

وها نحن نستقري كلّ كورة لنرى ما يقول المقدسيّ فيهــا . قال عن حلب (ص ١٥٥):

« وامَّا حلب فبلد نفيس خفيف حصين وفي اهلهــا ظرف ولهم يسار وعقول مبنيّ بالحجارة عامر. في وسط البلد قلعة حصينة واسعة فيها ماء وخزائن السلطان. والجامع في البلد. شربهم من نهر

١) يريد جزيرة العرب كما ارتأى بصواب المسيو دي غوي

قُوَيْق يدخل الى البلد الى دار سيف الدولة في شباك حديد والقصبة ليست بكبيرة الّا انّ بها مستقرّ السلطان لها سبعة ابواب باب حمص باب الرقّة باب قنّسرين باب اليهود باب العراق باب دار البطّيخ باب انطاكية وباب الاربعين مسدود »

وكانت انطاكية في ايّام المقدسيّ قد انحطّت عن رتبتها السابقة بعد تقدّمها على كل مدن الشام. ولذلك يكتفي الكاتب بذكرها دون وصفها . وعلى خلاف ذلك حمص فانها كانت نالت نصيباً وافياً من الفخر قال المقدسيّ في تعريفها (ص ١٥٦) :

« حمص ليس بالشام بلد اكبر منها وفيها قلعة متعالية عن البلد تُرى من خارج اكثر شربهم من ماء المطر ولهم ايضاً نهر ولما فتحها المسلمون عمدوا الى الكنيسة فجعلوا نصفها جامعاً . عنده بالسوق قبّة على راسها شبه رجل من نحاس واقف على سمكة تديرها الارياح الاربع وفيه اقاويل لا تصحّ والبلد شديد الاختلال متداعٍ الى الخراب »

ويلوح من قول المقدسيّ (ص ١٥٦) ان تدمر كانت بعد في عهدهِ على حالةٍ من العمران « قريبة من البادية رحبة طيّبة » . وهاك وصف دمشق قال (ص ١٥٦ و١٥٧) :

« دمشق هي مصر (١ الشام ودار الملك ايام بني اميّة وثَمّ قصورهم وآثارهم . بناؤهم خشب وطين وعليها حصن أُحدث وانا بهِ من طين اكثر اسواقها مغطّاة . ولهم سوق على طول البلد مكشوف حسن وهو بلد قد خرقتهُ الانهار . واحدقت بهِ الاشجار . وكثرت بهِ الثمار . مع رخص اسعار . وثلج واضداد لا ترى احسن من حماماتها ولا اعجب من فوّاراتها ولا احزم من اهلها . الذي عرفتهُ من دروبها باب الجابية باب الصغير باب الكبير باب الشرقي باب توما باب النهر باب المحامليين . وهي طيّبة جدًّا . غير انَّ في هوائها يبوسة واهلها غاغة وثمارها تفهة ولحومها عاسية ومنازلها ضيّقة وازقّتها غامّة واخبازها رديّة والمعايش بها ضيّقة تكون نحو نصف فرسخ في مثلهِ في مستوى »

ثم يُردف المقدسيّ كلامهُ بوصف الجامع الاموي الشهير المعدود كاحدى عجائب الدنيا . ووصفهُ اقدم ما ورد الينا في ذلك البناء العظيم ولولا طولهُ لاثبتناهُ هنا وهو يعرّفنا بمحاسن ذلك العمل الجليل ورونقهِ البهيّ قبل أن يُصاب ثلاثاً بمصاب الحريق ونحن نكتفي بذكر رواية نقلها المؤلف عن نفسهِ حيث قال (ص ١٥٩) :

« قلتُ يوماً لعمّي : يا عمّ لم يحسن الوليد (٢ حيث انفق اموال المسلمين على جامع دمشق ولو

---

١) يريد بالمصر هنا المدينة الكبيرة والحاضرة . كما يقال عن الكوفة والبصرة انهما مصرا العراق او العراقان »

٢) هو الوليد بن عبد الملك

اصرف ذلك في عمارة الطرق والمصانع ورمّ الحصون لكان أصوب وافضل . قال : لا تغفل بنيّ انّ الوليد وُفّق وكُشف لهُ عن امر جليل وذلك انهُ رأى الشام بلد النصارى ورأى لهم فيها بيعاً حسنة قد أفتن زخارفها وانتشر ذكرها كالقمامة وبيعة لُدّ والرها فاتّخذ للمسلمين مسجداً اشغلهم به عنهنّ وجعلهُ احد عجائب الدنيا ألا ترى انّ عبد الملك لما رأى عظم قبّة القمامة وهيئتها خشي ان تعظم في قلوب المسلمين فنصب على الصخرة قبّة على ما ترى »

وهو قول جليل يدلُّ على ما بلغهُ فنّ البناء والهندسة في بلاد الشام بين اهل الذمة

اما المدن الساحليّة فانها على ما يظهر كانت قليلة الشان بالنسبة الى حمص ودمشق فانّ المقدسيّ لا يكاد يزيد على ذكر اسمائها حيث قال (ص ١٦٠) : « صيداء وبيروت مدينتان على الساحل حصينتان وكذلك طرابلس الّا انها اجلّ » . بخلاف بانياس فانها كانت في ذلك العهد مدينــة عامرة واسعة الثروة بما يأتيها من غلال كورة الحُولة التي يدعوها المؤلف « معدن الاقطان » . قال (ص ١٦٠) :

« ومدينة بانياس على طرف الحولة وحدّ الجبــل ارخى وارفق من دمشق واليها انتقل اكثر اهل الثغور لمّا أُخذت طرسوس وزادوا فيها وهي كل يوم في زيادة لهم نهر شديد البرودة يخرج من تحت جبل الثلج وينبع وسط المدينة وهي خزانة دمشق رفقة باهلها بين رساتيق جليلة غير انّ ماءها رديّ »

ومن المدن التي افاض المؤلف في وصفها طبريّة وكانت اذ ذاك اعظم خطراً منها اليوم مع انطباق وصفها اجمالاً مع وضعها الحاليّ . قال (ص ١٦١) :

« طبريّة قصبة الاردن وبلد وادي كنعان موضوعة بين الجبل والبحيرة وهي ضيّقة كربة في الصيف مؤذية . طولها نحو من فرسخ بلا عرض وسوقها من الدرب الى الدرب والمقابر على الجبل . بها ثماني حمّامات بلا وقيد ومياضٍ عدّة حارّة الماء والجامع في السوق كبير حسن قد فُرش ارضهُ بالحصى على اساطين حجارة موصولة . ويقال « اهل طبريّة شهرين يرقصون وشهرين يقمقمون وشهرين يثاقفون وشهرين عُراة وشهرين يزمّرون وشهرين يخوضون » . يعني يرقصون من كثرة البراغيث ويلوكون النبق ويطردون الزنابير عن اللحم والفواكه بالمذابّ وعراة من شدّة الحرّ ويمصّون قصب السكّر ويخوضون الوحل . واسفل البحيرة جسر عظيم عليهِ طريق دمشق وشربهم منها عليها بما يدور قرى نخيل والسفن فيها تذهب وتجيء وماء الحمامات والدواميس اليها لا يستطيبها الغرباء كثيرة الاسماك خفيفة الماء والجبل مطلّ على البلد شاهق »

والجسر الذي يذكرهُ الكاتب ليس هو على ما نظن جسر المجامع الذي يُرى

اليوم جنوبًا بل بريد جسرًا آخر خربًا تُرى بقاياهُ عند مخرج الاردن من بحيرة طبرّية. وكان اكبر من جسر المجامع واقرب من طبرّية . ويتَّضح من وصفهِ ايضًا ان الطريق من دمشق الى طبرّية كانت تقطع ذلك الجسر مارّة بأفيق سواء وبينهما بريد واحد (ص ١٩٠) وهكذا كانت تسهل المواصلات مع طبرّية دون عطفة جسر المجامع . وهذا ما يحملنا على مخالفة رأي المسيو دي غوي الذي ارتأى انَّ الجسر المذكور هو جسر المجامع (ص ١٦١ في الحاشية h). ويؤخذ ايضًا من كلام المقدسيّ انَّ ملاحة بحيرة طبرّية كانت ذات بال وانَّ الكورة كانت في نموّ وعمران . امَّا اليوم فلا تكاد ترى على بحيرة طبرّية سوى قوارب قليلة . والامل معقود بان سكَّة الحديد الحميديّة سوف تعيد قريبًا الى هذه المحالّ حركتها السابقة وتقدُّمها

ثم اتبع المؤلف وصفهُ بذكر بلاد فلسطين وقد قدَّمنا فويق هذا تعريف عكّا وميناها الخطير المشابه بحسنهِ مينا صور الذي وصفهُ بما يلي (ص ١٦٣):

« وصور مدينة حصينة على البحر بل فيهِ يُدخَل اليها من باب واحد على جسر واحد قد احاط البحر بها ونصفها الداخل حيطان ثلاثة بلا ارض تدخل فيهِ المراكب كل ليلة ثم تجرّ السلسلة التي ذكرها محمَّد بن الحسن في كتاب الاكراه ولهم ماء يدخل في قناة معلَّقة وهي مدينة جليلة نفيسة بها صنائع ولهم خصائص وبين عكا وصور شبه خليج ولذلك يقال « عكا حذاء صور الّا انك تدور » يعني حول الماء »

ولم يكن المؤلف لينسى وطنهُ بيت المقدس فافرد لهُ وصفًا مطوَّلًا يستشفُّ من ورائهِ حبّ الكاتب لمسقط رأسهِ . واورشليم كانت اذ ذاك كما هي اليوم مدينة معتبرة ولذلك احببنا ان ننقل قسمًا من كلامهِ . وليس شاهد ادلّ على فضل المقدسيّ من هذه المنقولات التي نثبتها في كلامنا مع حُسن بيانها لاحوال الشام في عصره . قال بعد ذكره للرملة قصبة بلاد فلسطين (١٦٥—١٦٧):

« بيت المقدس ليس في مدائن الكُوَر اكبر منها وقصبات كثيرة اصغر منها كاصطخر وقاين والفرما لا شديدة البرد وليس بها حرّ وقلَّ ما يقع بها ثلج . وسألني القاضي ابو القاسم ابن قاضي الحرمين عن الهواء بها فقلتُ : سجسجٌ لا حرّ ولا برد شديد . قال : هذا صفة الجنَّة . بنيانهم حجر لا ترى إحسن منهُ ولا اتقن من بنائها ولا اعفّ من اهلها ولا اطيب من العيش بها ولا انظف من اسواقها ولا اكبر من مسجدها ولا اكثر من مشاهدها . عنبها خطير . وليس لمنقَّتها نظير . وفيها كلّ حاذق وطبيب . واليها قلبُ كل لبيب . ولا تخلو كل يوم من غريب . وكنت يومًا في

مجاس القاضي المختار ابي يحيى ابن جرام بالبصرة فجرى ذكر مصر الى ان سئلتُ : اي بلدٍ اجلّ قلت : بلدنا . قيل : فايُّها اطيب . قلت : بلدنا . قيل : فايُّها افضل . قلت : بلدنا . قيل : فايُّها احسن . قلت : بلدنا . قيل : فايُّها اكثر خيرات . قلت : بلدنا . قيل . فايُّها اكبر . قلت بلدنا . فتعجب اهل المجلس من ذلك وقيل : انت رجل محصّل وقد ادّعيت ما لا يُقبَل منك وما مثالك الّا كصاحب الناقة مع الحجَّاج . قلتُ : امَّا قولي « اجلّ » فلانها بلدة جمعت الدنيا والآخرة فمن كان من ابناء الدنيا واراد الآخرة وجد سوقها . ومن كان من ابناء الآخرة فدعتهُ نفسهُ الى نعمة الدنيا وجدها . وامَّا طيب الهواء فانهُ لا سمّ لبردها ولا اذى لحرّها . وامَّا الحُسْن فلا ترى احسن من بنيانها ولا انظف منها ولا انزه من مسجدها . اما كثرة الخيرات فقد جمع الله تعالى فيها فواكه الاغوار والسهل والجبال والاشياء المتضادَّة كالاترجّ واللوز والرطب والجوز والتين والموز . وامَّا الفضل فلانَّها عرَصة القيامة ومنها الحشر واليها المنشر . . . فتحوي الفضل كلهُ . واما الكبر فالخلائق كلّهم يُحشَرون اليها فايّ ارضٍ اوسع منها . فاستحسنوا ذلك واقرُّوا بهِ »

ويلي فلسطين ذكر الكورة السادسة وهي كورة الشراة دُعيت بذلك باسم جبل الشراة الذي يمرُّ بها . وقد سبق لنا في احد اعداد المشرق الاخيرة (١٠ : ٥٧٧) ما اكتشفهُ في تلك الجهات الدكتور لويس موسيل . وها نحن نثبت هنا نتفًا ممَّا جاء في تاليف المقدسيّ عن بعض بلدانها . قال في وصف صُغَر التي اشرنا آنفًا الى موقعها جنوبي بحيرة لوط في موقع تنيف حرارتهُ على لظى كل البلاد (ص ١٧٨) :

« صُغَر اهل الكورتين يسمُّونها صقَر . وكتب مقدسي (١ الى اهلهِ : من صقَر السفلى الى الفردوس الاعلى . وذلك انهُ بلد قاتل الغرباء رديء الماء ومن ابطأ عليهِ ملك الموت فليرحل اليها . ولا اعرف في الاسلام لها نظيرًا في هذا الباب ولقد رأينا بلدانًا وبيئةً ولكن ليس كهذه اهلها سودان غلاظ وماؤها حميم وكانها جحيم الّا انها البصرة الصغرى والمتجر المُربح وهي على البحيرة المقلوبة وبقيَّة مدائن لوط وانَّما نجت لانَّ اهلها لم يكونوا يعملون الفاحشة والجبال منها قريبة »

ودونك ما كتب عن مآب (ص ١٧٧) :

« مآب في الجبل كثيرة القرى واللوز والاعناب قريبة من البادية ومؤتةُ من قراها وثَمَّ قبر جعفر الطيَّار »

ومؤتة المذكورة هنا موقعها معروف على بُعد نحو اربع ساعات جنوبيّ الكرك . وهذا دليل على موقع مآب لكنهُ غير كافٍ للحكم الباتّ في ذلك كما سبق لنا القول في المشرق (١٠ : ٥٨٠) . امَّا الكرك فانَّ المقدسيّ لم يروِ اسمها ولا دفعة واحدة

١) اي رجل من بيت المقدس ليس هو المؤلف

بخلاف مآب التي يكرّر اسمها ويعدّها كمكان ذي شأن . وما ادرانا انَّ الكرك نفسها كانت تسمَّى مآب كما يُشعر بذلك اسمها اليوناني القديم فان البوزنطيين كانوا يسمُّونها كركموبا (Χαρὰκμωβα)

وليست مآب وحدها التي باد اثرها في تلك الناحية التي كانت بعدُ عامرةً في ايّام المقدسيّ . وممّا ذكرهُ أذرُح الشهيرة بمعسكرها الرومانيّ وفيها جرت حكومة الحكَمَين من اعظم حوادث الدولة الامويّة (١ . وبقيت أذرح في مقامها الصالح الى القرن الثاني عشر وهي اليوم خراب وقد زرنا بقاياها في شهر آب من السنة ١٩٠٥ عند رجوعنا من وادي موسى ومدينة بترا التي كان الخراب استولى عليها قبل عهد المؤلف بزمن طويل فلم يتعرَّض لذكرها

*

قد تبعنا المقدسيّ في تعريفهِ لاعظم مدن الشام الباقية في زمنهِ طبقًا لاوصافها الطبيعيَّة وتقاسيمها النظاميَّة . ولا نشكّ انَّ القارئ قدّر الكاتب قدرهُ بما نقلنا من نصوصهِ المتعدّدة . وهي كما ترى كافية لتجعل لهُ مقامًا ممتازًا بين ارباب رسوم البلدان . الَّا انَّ للمقدسيّ فضلًا آخر بما الحقهُ بهذا القسم وهو فصلٌ علميّ دعاهُ « بجمل شؤون هذا الاقليم » واودعهُ عدَّة ملحوظات لتعريف جغرافيَّة الشام الطبيعيَّة والاقتصاديَّة والنسبيَّة وفي هذا الفصل ايضًا معلومات اخرى في العادات والنقود والاوزان والمكاييل ومال الخراج على مقتضى عادة كل كورة . وعندنا انَّ المؤلف يظهر في هذا الفصل من المزايا الفنيَّة وحسن النظر الجغرافيّ الذي يرقّي مقامهُ بين الكتبة ولهُ من الملحوظات ما لو كُتب في زماننا لنال بسببهِ الكاتب ثناء ، وهو القسم الذي لاجلهِ يطرئ المستشرقون عمل المقدسيّ ويعظمونهُ (٢ . فمن ذلك ما روينا عنهُ في تقاسيم بلاد الشام ما يشهد لهُ بثقوب العقل ودقَّة النظر (٣

١) راجع مقالاتنا في اخبار الخليفة معاوية (Etudes sur le Calife Moʿawia)

٢) اطلب تاريخ الاداب الشرقية لفون كريمر Von Kremer: *Culturgeschichte* II, 429-433)

٣) وقد نقل مع هذا روايات ضعيفة ومزاعم غريبة تجدها في غيره من الكتبة كابن الفقيه

والكاتب يفتتح كلامهُ بوصف احوال الجوّ في بلاد الشام كما كان حقيقاً بهِ قال (ص ١٧٩):

«هو اقليم متوسّط الهواء الّا وسطهُ من الشراة الى الحولة فانهُ بلد الحرّ والنيل والموز والنخيل وقال لي يوماً غسّان الحكيم ونحن باريحا : ترى هـذا الوادي . قلتُ : بلى . قال : هو يمتدُّ الى الحجاز ثم يخرج الى اليمامة ثم الى عُمان وهجَر ثم الى البصرة ثم الى بغـداد ثم يصعد الى ميسرة الموصل الى الرقّة وهو وادي الحرّ والنخيل واشدّ هذا الاقليم برداً بعلبكّ وما حولها . ومن امثالهم قيل للبرد : اين نطلبك . قال : بالبلقاء . قال : فان لم نجدك . قال : بعلبكّ بيتي : وهو اقليم مبارك بلد الرخص والفواكه والصالحين . وكلما علا منهُ نحو الروم كان اكثر انهاراً وثماراً وابرد هواء وما سفل منهُ فانهُ افضل واطيب والذّ ثماراً واكثر نخيلاً ليس فيهِ (١ نهرٌ يسافَر فيهِ»

وهذا القول الاخير غاية في الصواب فان المقدسيّ لم يكن ليصادق على مذهب اسطرابون ومن حذا حذوهُ بانَّ العاصي يمكن ركوبهُ على الاقل من انطاكية . وهو زعم لا صحّة لهُ حتى مع حصر الكلام وتخصيصهِ بهذا القسم الصغير فانّنا قد تحقّقنا بنفسنا الامر اذ سرنا في وادي العاصي من انطاكية فوجدناهُ لا يصلح لمرور القوارب

ومن الظواهر الجويّة التي ذكرها المقدسيّ الندى في انحاء الشام وخصوصاً في بعض جهات فلسطين فقال (ص١٨٦) : « يتزل على فلسطين في كلّ ليلة الندى في الصيف اذا هبّت الجنوب حتى يجري منهُ مزاريب المسجد الاقصى » . وممّا رأيناه بالعيان انّنا بتنا في ذبان بين الكرك ومادبا في شهر آب سنة ١٩٠٥ تحت ظل السماء فلمّا قمنا صباحاً شعرنا بالندى قد بلّل اغطيتنا حتى امكنّا عصرها لو شئنا . ومثل هذا الندى يسقط في الناصرة من عمـل الجليل وفي بزيزا في ناحية الكورة (لبنان) . ووفرة الندى كما هو معلوم من البركات التي يستدرُّها الناسُ من السماء ويعد بها الكتاب الكريم كالغيث والمطر

وقد اعقب المقدسيّ ذكر الظواهر الجويّة بوصف التجارات اي الغلات الصـادرة من الشام . وفي تعدادهِ دليل واضح على تقـدُّم التجارة والصناعة في ذلك العهد كما يشهد على كثرة تلك الصادرات وثمنها (٢ . وها نحن نورد كلامهُ لفائدتهِ (ص ١٨٠ — ١٨١):

ومعظم عدد الجغرافيين من ذلك قولهُ (ص ١٢٤) : « سُئل ابن العبّاس عن الجزر والمدّ قال : ملاك موكّل بقاموس البحر اذا وضع رجلهُ فاض فاذا رفع رجلهُ غاض الماء »

١) اي في اقليم الشام

٢) راجع في المشرق (٩ : ٩١٦) مقالتنا في تجارة سواحل سوريَّة

« والتجارات بهِ (اي الشام) مفيدة يرتفع من الفلسطين الزيت والقطين والزبيب والخرنوب والملاحم والصابون والفوط . ومن بيت المقدس الجبن والقطن وزبيب العينوني والدوريّ غاية والتفّاح وقضم قريش الذي لا نظير لهُ والمرايا وقدور القناديل والإبر . ومن اريحا نيل غاية . ومن صُغَر وبيسان النيل والتمور . ومن عمّان الحبوب والخرفان والعسل . ومن طبريّة شقاق المطارح والكاغد وبزّ . ومن قدَس الثياب المنيّرة والبلعسيّة والحبال . ومن صور السكّر والخرز والزجاج الخروط والمعمولات . ومن مآب قلوب اللوز . ومن بيسان الرزّ . ومن دمشق المصور والبلعيسيّ وديباج ودهن بنفسج دون والصفريّات والكاغد والجوز والقطين والزبيب . ومن حلب القطن والثياب والاشنان والمغرة . ومن بعلبك الملابن . ولا نظير لقطين وزيت الانفاق وحوّارى وميازر الرملة ولا لمنقّة وقضم قريش وعينونيّ ودوريّ وترياق وترذوغ وسُبَح بيت المقدس . واعلم انهُ قد اجتمع بكورة فلسطين اربعة وثلاثون شيئاً لا يجتمع في غيرها . فالسبع الاولى لا توجد الّا بها والسبع الثانية غريبة في غيرها والاثنان والعشرون لا تجتمع الّا بها وقد يجتمع اكثرها في غيرها مثل : قضم قريش والمنقّة والعينونيّ والدوريّ والنجاص الكافوريّ وتين السباعيّ والدمشقيّ والقلقاس والجمّيز والخرنوب والمكّوب والعنّاب وقصب السكّر والتفاح الشاميّ والرُّطَب والزيتون والاترجّ والنيل والراسن والنارنج واللُّفّاح والنبق والجوز واللوز والهليون والموز والسماق والكرنب والكماة والترمس والطريّ والثلج ولبن الجواميس والشهد وعنب العاصمي والتين التمريّ »

وكذلك عدّد المعادن الشاميّة وتعدادهُ مهمٌّ لشؤون الصناعة في زمانهِ . قال (ص ١٨٤) :

« بهِ (اي إقليم الشام) معادن حديد في جبال بيروت وبحاب مغرة جيّدة وبعمّان دونها وبهِ جبال حُمَر يسمّى ترابها الصمغة وهو تراب رخو وجبال بيض تسمّى الحوّارة فيهِ ادنى صلابة يبيَّض بهِ السقوف ويطيَّن بهِ السطوح وبفلسطين مقاطع حجارة بيض ومعدن للرخام ببيت جبريل وبالاغوار معادن كبريت وغيره . ويرتفع من البحيرة المقلوبة ملح منثور وخير العسل ما رعى السعتر بايليا وجبل عاملة واجود المُري ما عُمل باريحا »

وهذا التعداد يدلُّ كما ترى على فقر بلاد الشام بالمعادن كما اشرنا اليهِ غير مرّة (١ وللمقدسيّ اسطر قليلة كتبها في مجاري المياه والعيون في بلاد الشام تفيد معرفتها محبّي الاسفار قال (ص ١٨٤) :

« ومياه هذا الاقليم جيّدة الّا ماء بانياس فانهُ يُطلق وماء صور يحصر وماء بيسان ثقيل وماء الرملة مريّ وماء نابلس خشن وفي ماء دمشق وايليا ادنى خشونة وفي الهواء ادنى يبوسة »

ولم يسهُ المؤلف عن ذكر حمّامات طبريّة المعدنيّة وحمّامات الحمّة (٢ قال (ص ١٨٥) :

١) اطلب في كتابنا تسريح الابصار (٢ : ٢٠٧) مقالتنا في معادن لبنان

٢) في وادي اليرموك

« وبطبريَّة عين تغلي تعمُّ اكثر حمَّامات البلد وقد شُقَّ الى كل حمَّام منها نهر فبخاره يحمي البيوت فلا يحتاج الى وقيد وفي البيت الاول ماء بارد يمزج مقدار ما يتطهَّرون به ومطاهرهم من ذلك الماء وفي هذه الكورة ماء مسخَّن يسمَّى الحمَّة حارّ من اغتسل فيهِ ثلاثة ايَّام ثم اغتسل في ماء آخر بارد وبهِ جرَب او قروح او ناسور او اي علَّة تكون برأ باذن الله »

ومن غريب ما رواهُ (ص ١٨٤) في مجاري الانهار قولهُ عن بردَى عند خروجهِ من دمشق فزعم « انهُ ينقسم قسمين بعض يتبحَّر نحو البادية وبعض ينحدر فيلقى نهر الاردن » وبديهيّ انَّ نهر بردى ليس هو مطلقاً من سواعد الاردنّ . ومن مزاعمهِ ايضاً (ص ١٨٤) انَّ في بحيرة لوط جبالًا . وهو رأي تفرَّد بهِ المقدسيّ ولا اصل لهُ وكذلك يسمّي بحر القلزم « بحر الصين » ويطلق الاسم عينهُ على خليج العجم . وفي قولهِ دليل على اتساع تجارة الصين في زمانهِ وشيوعها في مدن بحر القلزم الساحليَّة . امَّا الجبال فقد وصفها المقدسي وصفاً خفيفاً غير وافٍ بالمرام . وممَّا قال في لبنان (ص ١٨٨) انهُ « كثير الاشجار والثمار المباحة » ثم ذكر عبَّادهُ . ويلوح من قولهِ فيهِ انَّ جنوب هذا الجبل لم يكن مأهولًا على عهدهِ

فيرى القرَّاء من هذه التفاصيل سبب اعجاب المستشرقين بتأليف المقدسيّ فيا ليتهُ كان وجد لهُ اخلافاً مثلهُ ذوي عقل ثاقب يفقهون الابحاث الجغرافيَّة فكان هذا العلم اصاب ترقيًا عظيماً الَّا انَّ اغلب الكتبة الذين جاؤوا بعدهُ كانوا دونهُ اللهمَّ الَّا الشريف الادريسيّ

وممَّا استفادهُ القارئ ايضاً من هذا البحث كما نظنّ انهُ يرى ما طرأ على بلاد الشام من التقلُّبات واختلاف الاحوال في اطوار التاريخ فمنها ما يزيد وينمو ومنها ما ينقص ويتقهقر على حسب كوارث الدهر . وهذا يلوح من درس كل الكتبة الجغرافيين من العرب فانَّهم وان لم يبلغوا شأو المقدسي الَّا انَّهم تركوا لنا معلومات ثمينة تؤدّي بنا الى معرفة بلادنا في قرون شتى مع ما جرى فيها من الماجريَات في نظامها وتقاسيمها وتجارتها وبقيَّة امورها ممَّا يستفيد منهُ المؤرخ لاستطلاع احوال البلاد وادراك الحوادث الجارية فيها جيلًا بعد آخر

بلاد سوريّة في القرن الثاني عشر

وفقًا لرواية ابن جبير

١

تعريف رحلة ابن جبير

في السنة الهجريّة ٥٧٨ الموافقة لسنة الميلاد ١١٨٤ اعني سنتين قبل فتح السلطان صلاح الدين للقدس الشريف حضر من الاندلس رحّالة مسلم ليزور بلاد الشام. وكان السائح المومأ اليهِ يُدعى بابي الحسين محمّد بن احمد بن جبير الكنانيّ (١). كان تقلّد في بلاد المغرب والاندلس المناصب الشريفة وتقلّب في الاعمال المنيفة. فلمّا عاد الى وطنهِ دوّن اخبار سفرهِ الى الشرق (٢). وهذه خلاصة رحلتهِ: ركب ابن جبير البحر في سبتة مقلعًا الى الاسكندريّة على مركب للجنويين فمرَّ على جزيرة سردانية فصقلّية فجزيرة اقريطش وبلغ الاسكندريّة بعد ٣٠ يومًا ثمَّ طاف الصعيد ومال الى عيذاب فقطع بحر القلزم الى جدَّة وسار منها الى مكّة فاتمَّ فريضة الحجّ ثم زار المدينة ورحل منها الى العراق برًّا فوصل الى الكوفة ومنها الى بغداد. ثم كرَّ راجعًا الى المغرب فمرَّ بالموصل وبلاد الجزيرة الى ان بلغ منبج فدخل سوريّة وزار اولًا حلب ثم وادي العاصي ثم دمشق وصور وعكّة ومنها البحر الى الاندلس على احدى المراكب الجنويّة

١) من احبَّ مطالعة ترجمة ابن جبير بالتفصيل مليهِ بمقدّمة العلّامة رَيت (W. Wright) الذي تولّى طبع اسفارهِ وبمقدّمة المستشرق الفاضل دي غوي الذي جدَّد آخرًا طبع هذه الرحلة والى اعداد صفحاتها نشير. وليراجع خصوصًا ما كتبهُ عنهُ العلّامة سكياباريلّي (C. Schiaparelli) الذي نقل رحلتهُ الى الايطالية وسنعود الى ذكر ترجمتهِ. واطلب ايضًا ما كتبهُ المقري عنهُ في نفح الطيب

٢) ثم عاد ابن جبير الى انحاء الشرق فزارها ثلاثًا لكنّهُ لم يروِ في كتابهِ غير اخبار رحلتهِ الاولى

ولا نتعقَّب آثار المؤلف في كل رحلتهِ بل نكتفي بما كتبهُ عن سوريَّة التي عليهما مدار كلامنا . ووصفهُ لها يشغل في الكتاب نحو ٧٠ صفحة ونحن نقصر درسنا على هذا القسم فقط فنبيّن خواصَّهُ وفوائدهُ . وقد صرفنا اليهِ نظرنا بعد المقدسيّ لانَّ بين الكاتبين بونًا عظيمًا في كلامهما عن سوريَّة لا يكاد يجمعهما غير وحدة الموضوع . وكان الاول كما سبق القول وطنيًا وكان ابن جبير اجنبيًا غريبًا . كتب المقدسيّ بصفة جغرافيّ مدقق امَّا ابن جبير فانهُ يكتب كتابة الرحَّالة الذين يدوّن كلّ يوم ملحوظاتهِ في محفظتهِ كما أثّرت فيهِ وعملت في قلبهِ . وقد اختلف ايضًا الكاتبان في اسلوبهما وغايتهما ولذلك تجد تعريفهما لبلاد الشام متباينًا وبينهما نحو القرنين . فانَّ المقدسيّ يقصد قبل كلّ من كتابتهِ الافادة والتعليم . امَّا ابن جبير فانهُ يتوخّى من كتابتهِ بهجة القرَّاء وترويح البابهم . وكذلك تجد الاوَّل كثير التدقيق محبًّا للضبط والايجاز . على خلاف الثاني الذي يطلق العنان الى قلمهِ فلا يحصر نفسهُ في قالب او يقضي عليها بخطَّة معلومة فتراه يمزج تفاصيل رحلتهِ بما يعاينهُ ويسمعهُ وربَّما ادمج وصفهُ بالاخبار والماجريَات التي جرت اَبان رحلتهِ او نقلها عن الرواة . كما فعل بذكر صلاح الدين (ص ٣٠٠–٣٠١) . فانهُ يروي عنهُ امورًا بلغتهُ عن ذلك الملك العظيم الذي كان يحاصر حينئذٍ حصن الاكراد

وكلا الكاتبين يدَّعي مع ذلك انهُ لا يروي غير ما شهدهُ بالعيان . على انَّ المقدسيّ يشمل في وصفهِ كل انحاء سوريَّة بينما يقتصر ابن جبير على ذكر الامكنة التي احتلَّها في سفرتهِ وان كانت تلك الامكنة ليست قليلةً لأنَّ الرحَّالة تفقَّد معظم مدن سوريَّة الشهيرة في زمانهِ اللهمَّ الَّا جهات فلسطين وربَّما زاد في اوصافهِ لمدن الشام امورًا وفوائد جغرافيَّة فاتت المقدسيّ او ضرب عنها صفحًا

وممَّا نبَّهنا اليهِ الخواطر في كتاب المقدسيّ فانتقدناهُ عليهِ استعمالهُ احيانًا للسجع في اوصافهِ . لكنَّ المقدسيّ في ذلك لا يتجاوز حدود كَتَبة زمانهِ ولا يبالغ كثيرًا . اما ابن جبير فانَّ السجع يغلب على انشائهِ فيواصلهُ في صفحات متتالية . ومن المعلوم انَّ السجع يؤدي بصاحبهِ الى حشو الكلام والى استعمال الغريب والى التصنُّع فيبتعد الكاتب عن طرائق الكتابة الساذجة المألوفة ويبدلها بالمعاني المستغلقة والتعابير المستبهمة وكان السجع قليلًا في عهد الجاهليَّة وفي قرون الاسلام الاولى ثم تكاثر بانحطاط فنون الكتابة . وما نقولهُ بالاجمال يصحُّ في سجع ابن جبير ألا ترى مثلًا كيف وصف مدينة

حلب بما يشنّف اذن السامع دون ان يجديهُ نفعاً كبيرًا في معرفتها قال (ص ٢٥٠) :

« بلدة قدرها خطير . وذكرها في كل زمان يطير . خطّابها من ملوك كثير . ومحلّها من النفوس اثير . فكم هاجت من كفاح . وسلّت عليها من بيض الصفاح . لها قلعة شهيرة الامتناع . بائنة الارتفاع . معدومة الشبه والنظير في القلاع . تنزّهت حصانةً ان تُرام او تستطاع . قاعدة كبيرة . ومائدة من الارض مستديرة . . . »

الى آخر ما هناك من الكلام المسجّع (اطلب نخب الملح ٣ : ٩٠) الذي ليس تحتهُ كبير امر . ومثلهُ في وصف بساتين دمشق (ص ٢٦٠) :

« ظلّ ظليل . وماء سلسبيل . تنساب مذانبهُ انسياب الاراقم بكلّ سبيل . ورياضٌ يحيي النفس نسيمها العليل . تتبرّج لناظريها بمجتلى صقيل . وتناديهم هلمّوا الى معرّس الحسن ومَقيل . قد سئمت ارضُها كثرة الماء . حتى اشتاقت الى الظماء . فتكاد تناديك الصمّ الصلاب . اركض برجلك هذا مغتسَل باردٌ وشراب . قد احدقت البساتين بها إحداق الهالة بالقمر واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر . . . »

وممَّا يستحبهُ القارئ في مطالعة رحلة ابن جبير كما في اخبار الاسفار عموماً انَّ كاتبها يشير الى خواطر نفسهِ ويترجم عن احوالهِ الشخصيَّة وشواعرهِ لدى معاينتهِ الآثار والبلاد فمثال ذلك انهُ اذا رأى بلدًا في الشام تذكَّر نظيرهُ في الاندلس وقاس ذاك بهذا لما يجد فيهما من الشبه . كما فعل بحمص التي ذكَّرتهُ اشبيلية . قال (٢٥٨) :

« وتجد في هذه البلدة عند إطلالك عليها من بُعد في بسيطها ومنظرها وهيئة موضوعها بعض شبه بمدينة اشبيلية من بلاد الاندلس يقع للحين في نفسك خيالهُ وبهذا الاسم سُمّيت في القديم وهي العلّة التي اوجبت نزول الاعراب اهل حمص فيها حسبما يُذكر وهذا التشبيه وان لم يكن بذاتهِ فانهُ لمحةٌ من احدى جهاتهِ »

ولهُ قول كهذا في قنّسرين وهو يعارضها بجيَّان الاندلس (ص ٢٥٤) :

« وتشبهها من البلاد الاندلسيَّة جيَّان ولذلك يُذكر انَّ اهل قنَّسرين عند استفتاح الاندلس نزلوا جيَّان تأنُّساً بشبه الوطن وتعلُّلًا بهِ مثل ما فُعل في اكثر بلادها حسب ما هو معروف (١ »

---

١) اطلب معجم البلدان لياقوت (٢ : ١٠٥-١٠٦) ولهُ ملاحظة كهذه

هذا وانَّ في انشاء ابن جبير تعابير والفاظ تفرَّد بها تُشعر بأصلهِ المغربيّ. وفي النصوص التي نثبتها عنهُ دليل على ذلك

ومهما كان الامر من محاسن ابن جبير ونقائصهِ فانَّهُ لمقرَّر انَّ هذا الكاتب احد ارباب القلم يعتبرهُ المستشرقون اعتبارًا عظيماً . قال العلَّامة روورخت في كتابهِ المعنون مكتبة جغرافيي فلسطين (١: «انَّ رحلة ابن جبير غاية في الخطر لمعرفة بلاد الشام». وقد ادرجت جمعيَّة الكتابات والفنون في باريس قسماً كبيرًا من هذه الرحلة في مجموع مؤرخي الحروب الصليبيَّة الشرقيين (٢ لِما أُودع الكتاب من الفوائد التاريخيَّة عن الامور الجارية في زمانهِ. وقال الاستاذ سكياپارلّي في مقدَّمة ترجمة ابن جُبير انهُ « اذا قوبل بينهُ وبين غيرهِ من رحَّالي العرب كالمقدسي وابن بطوطة وغيرهما لا يوجد ابن جبير دون احد منهم في شيء من حيث الضبط والدقَّة وحسن الاسلوب وخطر الامور المدوَّنة » هذا ما قالهُ سكياپارلّي وحكمهُ صوابٌ وان كنَّا نرى انَّ المقدسيّ اعلى طبقةً من ابن جبير. لكنَّنا نقدّر ايضاً ابن جبير قدرهُ كما اقرَّ بفضلهِ ابن بطوطة وغيرهُ ممَّن استشهدوا بهِ ونقلوا عنهُ

وممَّا افادنا ابن جبير تعريفهُ لاحوال اهل الشام ووصفهُ لعاداتهم كما لحظها في تجوُّلهِ بينهم فدوَّن ملحوظاتهِ فيها وبما انهُ كان غريباً تجدهُ يتسع في بيان امور لا ينصرف اليهِ نظر اهلها ولولاهُ لجهلناها تماماً. فمن ذلك عدَّة اشياء ذكرها في دمشق قد اخنى عليها الزمان منذ زمن طويل كالبنكام الذي رآهُ هناك (ص ٢٦٩—٢٧٠) وكقبَّة النسر التي وصف خصائصها (ص ٢٩٣) واستغرب حجارتها فقال :

« وفي الجدار حجارة كل واحد منها يزن قناطير مقنطرة ولا تنقلها الفيَلَة فضلًا عن غيرها فالعجب كلّ العجب من تطليعها الى ذلك الموضع المفرط السموّ وكيف تمكَّنت القدرة البشريَّة فسبحان من ألهم عبادهُ الى هذه الصنائع العجيبة ومعينهم على التأتّي لما ليس موجودًا في طبائعهم البشرية ومظهر آياتهِ على يد من يشاء »

---

١) اطلب Rœhricht: *Bibliotheca Geogr. Palæstinæ*, p. 42

٢) اطلب Historiens des Croisades, III, 442-456

فليت شعري ما عساهُ كان قال ابن جبير لو رأى حجـارة بعلبك او عاين هيكلها العجيب الّا انَّ مسيرهُ لم يؤدِّ بهِ الى تلك المدينة (١

٢

سوريّة وابن جُبير

رأيتَ في الفصل السابق الطريقة التي توخَّاها ابن جبير في تسطير رحلتهِ وما ضمَّنها من الفوائد . فبقي علينـا ان نرافقهُ في سياحتهِ في بلاد الشام فنلتقط بصحبتهِ بعض المعلومات عن سوريّة في مختتم القرن الثاني عشر ولا غرو فانَّ دليلنا فكهُ النفس متوقّد الذهن فيبهج رفقتهُ ويفيدهم معاً

بعد ان اجتاز ابن جبير بلاد الجزيرة قطع الفرات فكان اوَّل ما لقيهُ في وجههِ من بلاد الشام منبج . فاحسّ السائح بجواد قلمهِ يُركض فاسترسل في وصفها بالسجع كمألوف عادتهِ (ص ٢٤٨) ولم يذكر من خواصّها الّا النزر القليـل ممَّا لا يُشفى بهِ العليل ولا يُروى الغليل . ثم سار من منبج الى حلب فوصفها وصفًا طويلًا روينا شيئاً من الفاظهِ المبهرجة . وألحق هذا الوصف باشتقاق اسم حلب فقال (ص ٢٥١) :

« كانت قديمًا في الزمان الاوَّل ربوة يأوي اليها ابراهيم الخليل بغُنَيمات لهُ فيحلبها هنالك وبتصدَّق بلبنها فلذلك سُمّيت حلب والله اعلم »

وهـذا الاشتقاق في الغرابة بمكان ذكرهُ ياقوت في معجم البلدان (٢ : ٣٠٤) مرتابًا في صحَّتهِ وقد زاد عليهِ ابن بطوطة ما هو اغرب فجعـل بدلًا من الغنم بقرةً شهباء قال : فكان اذا حلبها ابراهيم قيل « حلبَ ابراهيمُ الشهباء » . وليس في كل هذه الاشتقاقات كما ترى ذرَّةً من الصحَّة وانَّما هي مشابهات لفظيَّة لا طائل تحتها . ومثلها اشارة ابن جبير الى اشتقاق اسم حماة من حَمَى يحمي (ص ٢٥٥)

---

١) ذكر ابن جبير بعلبك (ص ٢٥٨) مرَّة واحدة دون وصفهـا وألحق بذكرها قولهُ « اعادها الله » كانهُ ظنَّ انها في ايدي العدوّ . وهو وهمٌ ظاهر لانّ بعلبك لم تحصل قطّ في حوزة الفرنج

ومن ملحوظات ابن جُبير في مسيرهِ من حلب الى دمشق (ص ٢٥٤) انّ « خانات هذا الطريق كأَنّها القلاع امتناعاً وحصانةً وابوابها حديد وهي من الوثاقة في الغاية » وكفى بهذا دليلًا ناطقًا على احوال بلاد الشام في عهدهِ. وقد كرَّر الرحَّالة مثل هذا القول غير مرَّة اطلب مثلًا قولهُ في خان السلطان (ص ٢٥٩)

ثم يذكر ابن جبير في طريقهِ من حلب الى حماة « جبل لبنان » على حسب عادة الاقدمين الذين كانوا يطلقون هذا الاسم ليس فقط على لبنان الحالي بل ايضًا على جبال النصيريَّة الواقعة في شمالهِ (١ وجعل في سفح هذا الجبل (ص ٢٥٥) « اللاحدة الاسماعيليَّة » وذكر شيئًا من بدعتهم. امَّا لبنان الحالي فقد عرَّفهُ ابن جبير بما حرفهُ (ص ٢٨٧):

« وهذا الجبل من اخصب بلاد الدنيا فيهِ انواع الفواكه وفيهِ المياه المطَّردة والظلال الوارفة »

واضاف الى قولهِ ما يؤيد قول المقدسيّ في العبّاد المنقطعين الى الله في لبنان فقال: « وقلَّ ما يخلو من التبتيل والزهادة »

ثم مرَّ ابن جبير في رَستن (ص ٢٥٧) فاشار الى آثارها العظيمة وتخريبها على يد عُمر بن الخطَّاب ثم قال: « ويذكر القسطنطينيُّون انَّ بها اموالًا مكنوزة والله اعلم » وقولهُ هذا صدًى لمزاعم العامَّة في كل زمان عن المطالب والدفائن المكنوزة في الاخربة القديمة وهو شائع في انحاء سوريَّة الى عهدنا هذا وربَّما صدَّقهُ الجهَّال فاخربوا بسببهِ عدَّة آثار جليلة حطَّموها طمعاً في ما تحتها من الكنوز المرصودة على زعمهم

وممَّا اثنى عليهِ في حمص محاسن بساتينها وطيب هوائها وذكر قبر خالد بن الوليد ثم قبر ابنهِ عبد الرحمان الذي اشبه اباهُ بجليل اعمالهِ. واضاف اليهما قبر عبيد الله (٢ ابن عمر الذي قُتل في صفّين. ويؤخذ من قول ابن جبير انَّ جثَّة عبيد الله نُقلت الى حمص بعد موتهِ. وكانت حمص على عهد ابن جُبير فقدت كثيرًا من محاسنها كما لحظ الكاتب حيث قال (ص ٢٥٨):

---

١) اطلب كتابنا تسريح الابصار (ج ٢: ٣-١٠)

٢) هي الرواية الصحيحة وليس كما روى الاستاذ سكياپارلي في ترجمتهِ الايطالية غير مرَّةٍ « عبد الله » فانَّ عبد الله بن عُمر مات وقبر في مكَّة كما اتَّفق عليهِ كافة المؤرخين

« واسوار هذه المدينة في غاية المتانة والوثاقة مرصوص بناؤها بالحجارة الصمّ السود وابوابها ابواب حديد سامية الاشراف هائلة المنظر رائعة الاطلال والإنافة تكتنفها الابراج المشيّدة الحصينة وأمّا داخلها فما شئت من بادية شمثاء خلقة الارجاء ملفّقة البناء . لا اشراق لآفاقها . ولا رونق لاسواقها . كاسدة لا عهد لها بنفاقها »

ثم واصل المسافر سيرهُ من حمص الى دمشق . وكانت الطريق بينهما قليلة العمران كما في ايّامنا اللهمّ الّا ثلاث او اربع قرى التي احتلّها كقارة التي لم يجد فيها غير النصارى (ص ٢٥٩) والنبك . وبعد اجتيازه في خان السلطان فثنيّة العُقاب فقُصَير دخل الفيحاء فاطلق العنان لقلمهِ في وصفها . وقد اتّسع في ذكر محاسنها واطنب ايّ اطناب ولولا مبالغتهُ في السجع لقلنا انّ كلامهُ من اوفى ما جاء في بيان صفاتها لا نستثني من ذلك الّا بعض الكتب الخاصّة التي وُضعت في فضائل دمشق . ودونك ما روى عن بعض ابنيتها قال (ص ٢٨٣) :

« وبهذه البلدة نحو عشرين مدرسة . وبها مارستانان قديم وحديث والحديث احفلهما واكبرهما وجرايتهُ في اليوم نحو الخمسة عشر دينارًا ولهُ قَوَمة بايديهم الأزمَّة المحتوية على اسماء المرضى والنَّفَقات التي يحتاجون اليها في الادوية والاغذية وغير ذلك والاطبّاء يبكّرون اليهِ في كلّ يوم ويتفقّدون المرضى ويأمرون باعداد ما يصلحهم من الادوية والاغذية حسبما يليق بكل انسان منهم والمارستان الآخر على هذا الاسم لكنَّ الاحتفال في الجديد اكثر . وهذا القديم هو غربيّ الجامع المكرَّم . وللمجانين المعتقلين ايضاً ضربٌ من العلاج وهم في سلاسل موثقون نعوذ بالله من المحنة وسوء القدر »

وفي كتاب زبدة كشف الممالك (ص ٦٥) ما يشبه هذا الوصف في مارستانات دمشق

وممّا يجدر بنا ذكرهُ الميقاتة اي الساعة الدقّاقة التي كانت على باب جيرون اثبت المشرق سابقاً (٣ : ٩٨٥) كلامهُ فيها وهي من عجائب ذلك الزمان

ولولا ضيق المكان لاثبتنا شيئاً ممّا ذكرهُ ابن جبير عن الجامع الكبير الذي اتّسع في وصف ارخامهِ الملوَّنة وبلاطهِ المذهّب المنقوش بالفصوص البديعة وكانت الفسيفساء تزين جدرانهُ الخارجة المتّصلة بصحنهِ (ص ٢٦٨) فكانت اشعّة الشمس تصيبها وتنعكس الى كل لون منها فيأخذ منظرهُ بالابصار

وممّا يزيد بهِ اندهال القارئ وصفُ ابن جبير لمساجد اخرى عجيبة البنيان بديعة النقوش والارخام وجدها في قرى الغوطة فافاض في محاسنها

ثم تابع ابن جبير مسيرهُ من دمشق الى عكّة (ص ٢٩٨—٣١٠) مارًّا بدارية ثم بانياس ثم وادي تبنين بين حصنَيْ هونين وتبنين حتى بلغ ساحل الشام . ووصفهُ لطريقهِ غاية في الظرافة والاعتبار يصوّر احوال ذلك الزمان تصويرًا بهيًّا ويمثّل للعيان ما كان يجري في انحاء الشام من الامور الخطيرة . وكان ابن جبير في صحبة قفل من التجّار يسيرون بامان في بلاد العدوّ لاتّفاق لطيف جرى بين الفريقين ترويجًا لسوق التجارة ولطفًا بالعباد (١ وهذا لعمري دليل على ترقي التمدّن في ذلك العهد وفيهِ عبرة لاهل زماننا الذين لم يتمكّنوا من صيانة حقوق التجارة في وقت الحرب رغمًا عمّا اقاموه من مؤتمرات السلم

ولابن جبير كلام حسن في وصف صور نثبتهُ هنا ليتمكّن القارئ من المقابلة بينهُ وبين وصف المقدسيّ (راجع الصفحة ٦٩٠) قال (ص ٣٠٤):

« امَّا حصانتها ومنعتها فاعجب ما يحدَّث بهِ وذلك انّها راجعة الى بابين احدهما في البرّ والآخر في البحر وهو يحيط بها الّا من جهة واحدة فالذي في البرّ يُفضَى اليهِ بعد ولوج ثلاثة ابواب او اربعة كلّها في ستائر مشيدة محيطة بالباب . وامّا الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدَين الى ميناء ليس في البلاد البحريَّة اعجب وضعًا منها يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجصّ فالسفن تدخل تحت السور وترسي فيها وتعترض بين البرجَين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج فلا مجال للمراكب الّا عند ازالتها وعلى ذلك حرّاس وأُمناء لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج الّا على اعينهم فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوقع . ولعكّة مثلها في الوضع والصفة لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك وانّما ترسي خارجها والمراكب الصغار تدخل اليها فالصوريَّة اكبر واجمل واحفل »

وبقي ابن جبير في عكّة حتى اقلعت منها سفينة جنويَّة عادت بهِ الى المغرب . وكان الركّاب أَلفَين وليس هذا العدد مفرطًا ونحن نعلم انَّ بعض السفن الحربيَّة كانت تحمل ١٢٠٠ جنديّ ما عدا الخيل . ومنها ماكان يركبها الزوّار في عدد ١٥٠٠ (١ . وبين

---

١) ولابن جبير في هذا المكان عدّة تفاصيل وبيان عادات مألوفة نُحيل القرّاء الى مطالعتها لما تتضمَّن من الفوائد لتعريف احوال ذلك الزمان

٢) اطلب ما جاء في هذا الصدد في كتابي مرشان وپرتس:
J. Marchand : *De Massiliensium cum Eois populis commercio*, p. 46 ; H. Prutz : *Kulturgesch. d. Kreuzzüge*, p. 105

القوانين التي وُضعت للبحريين في ذلك العهد انهُ لا يسوغ ان يُتجاوز هذا العدد الاخير (١ ومن المعلوم انَّ سفن ذلك الزمان كانت شراعيَّة لا يمكنها السفر الَّا في فصول محدودة وقد نبَّه ابن جبير الى هذا الامر بقولهِ (ص ٣١١):

« وفي مهبّ الريح بهذه الجهات سرّ عجيب وذلك انَّ الريح الشرقيَّة لا تهبُّ فيها الَّا في فصلي الربيع والخريف والسفر لا يكون الَّا فيهما والتجَّار لا ينزلون الى عكّة بالبضائع الَّا في هذين الفصلين في السفر ونصف الفصل الربيعيّ من ابريل وفيهِ تتحرَّك الريح الشرقيَّة وتطول مدَّتها الى آخر شهر مايه واكثر واقل بحسب ما يقضي الله تعالى بهِ والسفر في الفصل الخريفيّ من نصف اكتوبر وفيهِ تتحرَّك الريح الشرقيَّة ومدَّتها اقصر من المدَّة الربيعيَّة وانما هي خلسة من الزمان قد تكون خمسة عشر يوماً وما سوى ذلك من الزمان فالرياح فيهِ تختلف والريح الغربية اكثرها دواماً فالمسافرون الى المغرب والى صقلّية والى بلاد الروم ينتظرون هذه الريح الشرقيَّة في هذين الفصلين انتظار وعدٍ سابق فسبحان المبدع في حكمتهِ المعجز في قدرتهِ لا إله سواه »

وكانت حياة الركَّاب على تلك السفن الكبيرة ذات حركة وتقلُّبات كأنَّها المدن الصغرى تمثّل كلّ اطوار المعيشة اليوميَّة . وممَّا اثبتهُ ابن جبير في رحلتهِ وصف عيد اقامهُ النصارى على ظهر السفينة بأبَّهة عظيمة ورونق عجيب قال (ص ٣١٣):

« وفي ليلة الخميس الرابع والعشرين لرجب وهو اوَّل يوم من نونبر (كذا) العجميّ كان للنصارى عيد مذكور عندهم احتفلوا لهُ في إسراج الشمع وكاد لا يخلو احد منهم صغيراً او كبيراً ذكراً او انثى من شمعة في يدهِ وتقدَّم قسّيسوهم للصلاة في المركب بهم ثم قاموا واحداً واحداً لوعظهم وتذكيرهم بشرائع دينهم والمركب يزهر كلّهُ اعلاهُ واسفلهُ سرجاً متّقدة وتمادينا على تلك الحالة اكثر تلك الليلة »

وكان المركب في تلك الاثناء ابتعد عن سواحل الشام واقترب من جزيرة صقلّية فلا حاجة ان نتعقَّب آثار سائحنا بعد ذلك وانَّما ندوّن هنا بعض الملحوظات العموميَّة التي تُستفاد من رحلة ابن جبير بخصوص الشام ومن اقوالهِ ما يفيد ويروّح الالباب معاً فمن ذلك انهُ يستعمل اسماء الشهور القمريَّة والروميَّة معاً كما رأيت في النصّ

١) اطلب كتاب شوب في تاريخ تجارة الشعوب الرومانية مع سواحل البحر المتوسط
A. Schaube : *Handelsgesch.* d. *roman. Voelker d. Mittelmergebicht*, p. 202.

راجع ايضاً مقالتنا في تعريف هذا الكتاب (المشرق ٦ : ٩٢٣)

الاخير . ومنها ما لحظهُ في اهل الشام من المبالغة في اتخاذ الالقاب والتعظيم في السلام بما لا أثر لهُ اليوم قال (ص ٢٨٨) :

« ومخاطبة اهل هذه الجهات قاطبةً بعضهم لبعض بالتمويل والتسويد وبامثال الخدمة وتعظيم الحضرة واذا لقي احدٌ منهم آخر مسلّماً يقول جاء المملوك او الخادم برسم الخدمة كنايةً عن السلام فيتعاطون الحال تعاطياً والجِدُّ عندهم عنقاء مغرب وصفة سلامهم ايماء الركوع او السجود فترى الاعناق تتلاعب بين رفع وخفض وبسط وقبض وربّما طالت بهم الحالة في ذلك فواحد ينحطّ وآخر يقوم وعمائمهم تهوي بينهم هوياً وهذه الحالة في الانعطاف الركوعيّ في السلام كنّا عهدناه لقَيْنات النساء . . . فيا للعجب منهم اذا تعاملوا بهذه المعاملة وانتهوا الى هذه الغاية في الالفاظ بينهم فبماذا يخاطبون سلاطينهم ويعاملونهم لقد تساوت الاذناب عندهم والرؤوس ولم يميِّز لديهم الرئيس والمرؤوس . . . »

وقد اثنى في محلّ آخر على احتفاء اهل الشام بالضيوف وحسن معاملتهم للغريب فقال (ص ٢٧٨) :

« فالغريب المحتاج هنا اذا كان على طريقة مصونٌ محفوظ غير مريق ماء الوجه وسائر الغرباء ممَّن ليس على هذه الحال ممَّن عهد الخدمة والمهنة يُسبَّب لهُ ايضاً اسباب غريبة من الخدمة امَّا بستان يكون ناطورًا فيهِ او حمَّام يكون عيناً على خدمتهِ وحافظاً لاثواب داخليهِ او طاحونة يكون اميناً عليها او كفالة صبيان يؤديهم الى محاضرهم ويصرفهم الى منازلهم الى غير ذلك من الوجوه الواسعة »

ومن ثم يدعو اهل وطنهِ ليأتوا بلاد الشام لينتجعوا خيراتها العميمة قال (٢٨٥) :

« فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل الى هذه البلاد ويتغرَّب في طلب العلم فيجد الامور المعينات كثيرة . فاوَّلها فراغ البال من امر المعيشة وهو اكبر الاعوان واهمُّها فاذا كانت الهمَّة فقد وُجد السبيل الى الاجتهاد ولا عذر للمقصّر الَّا من يدين بالعجز والتسويف . . . فهذا المشرق بابهُ مفتوح لذلك فادخل ايُّها المجتهد بسلام وتغنَّم الفراغ والانفراد قبل علق الاهل والاولاد ويُقرع سنُّ الندم على زمن التضييع والله يوفِّق ويرشد لا اله سواه . . . ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقيَّة كلّها الَّا مبادرة اهلها لاكرام الغرباء وايثار الفقراء ولاسيَّما اهل باديتها فانك تجد من بِدارِ الى برّ الضيف عجباً كفى بذلك شرفاً لها وربَّما يعرض احدهم كسرتَهُ على فقير فيتوقَّف عن قبولها فيبكي الرجل ويقول : لو علم الله فيَّ خيرًا لاكل الفقير طعامي . لهم في ذلك سرٌّ شريف »

وفي كل هذه الاقوال ما يدلّ على اعتبار ابن جبير لاهل الشام وارتياحهِ لسجاياهم الطيّبة

*

كفى بهذه الامثلة شاهدًا على اقتدار المؤلف وخواص كتابهِ وحسن نظرهِ بالامور وهذا ما حمل كثيرين على نقلهِ الى اللغات الاوربيَّة بتمامهِ او باقسام منـهُ . ومن ذلك ترجمة كاملة ايطاليَّة نشرها في العام المنصرم العلّامة سكياپارلي (١ وقد تصفَّحنا هـذه الترجمة فوجدناها بالاجمال مضبوطة جامعة بين الامانة وحسن الذوق . وقد توصَّل المترجم الى ان يزيل اللُّبس والشبهات عن عدَّة مواضع كان مسخها النسَّاخ فتحقَّق روايتهـا الاصليَّة واخرج معناها الصحيح . بيد انَّنا كنَّا وددنا لو ذيَّل جنـاب الناقل ترجمتهُ بحواشٍ اوفر وملحوظات اوسع . وقد وقع مع ذلك في هذه الترجمة بعض اغلاط منهـا (ص ٢٥٠) انهُ لم يفرق بين الواقعـة التي جرت في جوار حمص وقُصَير المجاورة لدمشق ومن ثم ليس « النهر الجاري امامها » نهر العاصي كما ظنَّ . وقد كرَّر هذا الغلط في محل آخر (ص ٤٠٠) — وكذلك وهمَ (ص ٣٨٧) بزعمهِ انَّ باب الجابيـة في دمشق معناهُ باب الحَوض . وانَّما دُعي بهذا الاسم لانهُ كان باب يؤدي الى الجابيـة وهي حاضرة بني غسَّان . الَّا انَّ هذه الاغلاط لا تمسُّ في شيء قدر هذه الترجمة التي تولَّى عملها . كما انهُ جمع في مقدَّمتهِ من الافادات في تعريف المؤلف ما لم يبلغهُ احد قبلهُ . هذا فضلًا عن الفهارس التي ألحقها بالكتاب . فنثني اذن الثناء الطيّب على الترجمـة الايطاليَّة الحديثة التي قرَّبت منافع ذلك التأليف الذي يستحقُّ درسًا خصوصيًا لكثرة مضامينهِ ولتأثيرهِ في الكتبة التابعين

هذا وكنَّا في وشك الانتهاء من كلامنا على ابن جبير اذ بلغتنا الطبعة الثانية من كتاب رحلتهِ التي تولَّاها ذلك المستشرق الهمام السيد دي غوي (de Goeje) صاحب المطبوعات الشرقيَّة المتعدّدة (٢ وحسبك باسمهِ دليلًا على مزايا هذه الطبعة التي تفوق

١) اسمها

Jbn Ǵubayr : *Viaggio in Ispagna, Sicilia, Siria e Palestina, Mesopotamia, Arabia, Egitto*. Roma, 1906, XXVII—412.

٢) هذا عنوانهُ :

E. J. W. GIBB MEMORIAL. vol. V. TRAVELS OF JBN JUBAIR. (Wright's Text). revised by **M. J. de Goeje**, *Leyden*, E. J. Brill, 1907. LIII—363

الطبعة الاولى مع ضبطها . ومن محاسن هذه الطبعة الجديدة انَّ جناب وليّ العمل اثبت الاصلاحات التي تركها الطابع الاوَّل المسيو رَيت واضاف اليها تنقيحات جديدة . وقد ابدى المسيو دي غوي اسفهُ على عدم حصولهِ على نسخة ثانية من الرحلة اشار اليها المسيو سكياپارلّي وذكر وجودها في مراكش . والحقّ يقال ان هذه الرحلة لا يُعرف لها حتى الآن الّا نسخة فريدة فلو امكنت مقابلتها على نسخةٍ ثانية لأَستُطيع تحسينها وزيادة ضبطها وعلى كلّ حال نهنّي الدكتور دي غوي ونشكرهُ على هذه الخدمة الجديدة التي أَلحقها بخدمهِ السابقة للآداب العربيَّة لاسيما للآثار الجغرافيَّة جازاهُ الله الف خير ونفع بهِ اهل وطننا الذين يجدون في مطبوعاتهِ معلومات لا تحصى عن بلاد الشام في غابر الاعصار

فهرست

المذاكرات الجغرافية في الاقطار السوريَّة